هذه الوجهة تشمل صورا ستة:

تبين عدد المرات التى وسع فيها المسجد الحرام السعيد.

ومن قام بتوسيعه وترتيبه وكيفية ذلك ومتى بدأ الأهالى الكرام بإرسال الصرر إلى الحرمين الشريفين؟

ومتى أخذت ذلك عادة؟ وما الأسباب التى أدت إلى زيادتها وما مقدار تلك الصرر التى ترسل؟ ومن الذين ترسل لهم؟ ومن الذين ينالون الهدايا؟ وما مقدار الوقود ـ وسائر ما تمس الحاجة إليه فى المسجد الحرام؟ وكذلك القناديل وشتى أنواع الشموع مع بيان مقدارها ونوعها، وتبين كذلك أول من أنشأ عين زبيدة ذاكرة مجاريها وقنواتها والذين جددوها وعمروها وأصلحوها وعدد ذلك.

obeikandl.com

فى توسيع وتعديل الحرم الشريف لأول مرة

أول من تفضل بتوسيع الحرم الشريف للمرة الأولى هو عمر بن الخطاب رضى عنه الله الوهاب.

كان ما يحيط بالمسجد الحرام إلى عصر الخليفة سيدنا «عمر الفاروق» المبارك وزمانه المقرون بالعدل والقسطاس ساحة رملية شبيهة بالصحراء، ولم يكن هناك ما نراه اليوم من مبان، بل كان مساكن فقراء الغرباء المصنوعة من القش والحصير، وكانت هناك طرق ملتوية بين الأكواخ للوصول إلى حرم الكعبة المعظمة.

أما المسجد الحرام وهو توأم حرم الجنة فكان فى تلك الآونة ممتدا إلى ما وراء مقام إبراهيم والمنبر الشريف، فأما الذى مازال موجودا إلى اليوم أمام الكمر الذى يسمى اليوم بـ «باب السلام العتيق» قد وضع علامة مميزة لحدود الحرم الشريف القديم.

ولم يغير وضع الحرم الشريف القديم فى عهد أبى بكر الصديق لقلة المؤمنين وأبقى كما هو. لم توسع ساحة الحرم الشريف فى ذلك العهد لاستيعابها مسلمى تلك الآونة.

إلا أن عدد المسلمين قد زاد فى عصر عمر الفاروق المتميز بالعبادة بحيث ضاقت كل الساحة ذات الفيوضات الإلهية لبيت الله بجموع المسلمين ولم تستوعبهم، وأصبح توسيع مساحة بيت الله وتفسحها يتجاوز درجة الوجوب، وهكذا اشترى عمر بن الخطاب (رضى عنه الله الوهاب) الأكواخ والدويرات الملتصقة بالمطاف وضمها إلى المسجد الحرام، ولكن ذلك التوسيع لم يف بالغرض مما اقتضى ضَمَّ البيوت الأخرى الكائنة حول الحرم إلى ساحة الحرم، وهذا ما دعا الخليفة إلى شراء بعض المنازل التى ستساعد على التوسيع.

وفى هذه المحاولة الثانية للتوسيع لم يرض أصحاب المنازل بالتنازل عن دورهم، بل سعوا لإحداث فتنة بنشر أقوال مغرضة.

حينئذ استدعى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ المعترضين على إعطاء بيوتهم وقال لهم: «لم يُبْنَ بيت الله فى وسط بيوتكم، بل أنتم الذين بنيتم بيوتكم حوله، وضيقتم الساحة المقدسة لكعبة الله» ثم دبر المبالغ اللازمة لشراء تلك الدور كما قدر ثمنها أهل الخبرة، ووضعها فى خزانة كعبة الله ثم هدم تلك البيوت وألحق أرضها بالمسجد الحرام، وهكذا وسع حرم المسجد الحرام على الوجه المطلوب.

ثم أحاط الحرم الشريف بسور يزيد ارتفاعه على قدمين قليلا من جهاته الأربعة لتوضع عليه القناديل والشموع، ثم أمر بفتح بوابات مقابل الطرق التى تركها قصى» بن كلاب للدخول فى المطاف السعيد. وفى ختام هدم المنازل جاء أصحابها إلى حضرة الفاروق عارضين ندمهم وأسفهم، ورجوه أن يعطيهم نقودا كافية لشراء سكن فأعطاهم المبالغ التى وضعها فى خزانة بيت الله من قبل، وهكذا أرضاهم وأسكتهم وكان ذلك فى سنة ١٧ الهجرية[١].

* * *

(١) انظر تاريخ الطبرى ٤/ ٦٨ ـ ٦٩.

التذييل

قد تم التوسيع المذكور للمسجد الحرام بعد سيل (أم نهشل)[1] بخمس سنوات.

حكمة:

يظهر فى مكة المعظمة كل عشر سنوات أو اثنى عشرة سنة سيول مرعبة مفزعة ـ لحكمة ما ـ وتعقب السيل بركة عظيمة ورواج وتقل الأسعار وتعم النعمة الإلهية والكرم اللامتناهى الجبال والبوادى. انتهى.

قد نكبت مكة المكرمة بكثير من السيول كالسيل الذى مر ذكره، وغدت البلدة العظيمة المقدسة خربة وسكانها حيارى متعبين وهم يبحثون عن حل لنكبتهم.

يقول الإمام الفاسى وهو يتحدث عن صواعق مكة المكرمة وأخطارها، ناقلا عن الإمام الأزرقى عن محمد بن يحيى وابن يحيى عن عبد العزيز.

١ ـ من السيول الشهيرة التى شهدتها مكة المكرمة «سيل القارة» قد اجتاح هذا السيل المفزع مكة فى الجاهلية فى زمن سيادة بنى خزاعة وأثناء حكومتهم، قد ظهر سيل القارة بشكل مفزع سريع ودخل فى المسجد الحرام واقتلع دوحة عظيمة فى طريقه وجرفها إلى أقصى حدود مكة المكرمة، ويروى أن رجلا وامرأة غرقا فى هذا السيل. ولم يعثروا على جثة الرجل ولكنهم وجدوا جثة المرأة، وكان اسمها «قارة» وكانت من كريمات نساء قبيلة بنى بكر المشهورة لذا أطلق على هذا السيل «سيل القارة».

قد نظف صناديد بنى خزاعة الحرم الشريف بعد انقطاع المياه التى تأتى من الأطراف، وبنوا حول بيت الله وحجر إسماعيل[2] حائطا منخفضا تفاديا لما قد يظهر من السيول فيما بعد، وظل هذا الحائط إلى عهد حكم قريش.

---

(١) انظر الإصابة لابن حجر ٨/ ٢٨٦.

(٢) يطلق حجر إسماعيل على ما تحت الميزاب الذهبى.

٢ ـ من سيول مكة الشهيرة ـ نوعا ما ـ السيل العظيم الذى وقع عقب «سيل القارة».

قال الإمام الأزرقى وهو يعرف هذا السيل نقلا عن سعيد بن المسيب: قد وقع فى الجاهلية سيل آخر مخيف وكان السيل المذكور أشد قُوَّةً من سيل القارة» وبلغ درجة متناهية فى الشدة إذ غمرت المياه ما بين الجبلين وغابت المنازل عن الأنظار.

٣ ـ من السيول التى اجتاحت مكة المعظمة «سيل أم نَهْشَل» الثالث من تلك السيول. وحدث هذا السيل فى السنة الحادية عشرة الهجرية وفى عهد الخليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى الله عنه)، وبدأ ظهوره على نحو مرعب من ناحية بيت (أبى سفيان بن حرب) أى من ناحية طريق مكة المعظمة الذى ينتهى إلى المعلى، فتدفق بشكل مخيف داخل الحرم الشريف وانتزع المقام الشريف من مكانه وجرفه حتى الوادى.

وجرف أم نهشل بنت عبيدة بن سعيد بن العاصى بن أمية من بنات «عبد شمس بن عبد مناف» أمامه وأغرقها. لذا عرف ذلك السيل باسم «سيل أم نهشل».

وبعد ما توقف السيل المخيف وانتهت صولته وجولته وانسحبت المياه الراكدة التى فى داخل المدينة، وجرت إلى بطن الوادى، اتحد سكان مكة المعظمة وطهروا مدينتهم ونظفوها وهم يد واحدة، وعثروا على المأثر اللطيف للمقام الشريف فى أسفل الوادى وحملوه إلى الحرم الشريف، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يعينوا مكان الجوهر الثمين لحجر المقام، ومن هنا أبلغوا الأمر إلى الخلافة الإسلامية السنية وعرضوا عليها الوضع.

وحينما أطلع الخليفة الفاروق الأعظم على الأمر اضطرب اضطرابا شديدا، وأسرع بالسفر إلى مكة المفخمة ناويا العمرة، وبمجرد وصوله إلى مكة المكرمة أخذ يبحث عن رجل قدير على تعيين موضع المقام الشريف.

ووجد ضالته فى «مطلب»[1] بن أبى وداعة السهمى «الذى يستطيع أن يعين موضع المقام الشريف فاستدعاه واستفسر منه الكيفية.

وإذا بمطلب بن أبى وداعة كان قد قاس المسافة بين الباب المعلى للكعبة الشريفة وبين المقام الشريف، وكذلك المسافة بين جدران بئر زمزم والمقام المنيف بحبل متوقعا أن يحدث مثل هذا الحادث، واحتفظ بالحبل فى مكان أمين فى منزله.

واستدعى حضرة الفاروق مطلب بن أبى وداعة، وأجلسه أمامه وطلب منه أن يحضر الحبل المذكور. وبعد مسح المكان وتعيين موضع المقام الشريف، وضع أساس البناء العالى الذى يطلق عليه إلى يومنا هذا «المقام الشريف».

إن الحجر الشريف الذى وضع فى داخل البناء الذى بناه عمر بن الخطاب هو الحجر الذى كان يضع عليه حضرة إبراهيم (على نبينا وعليه التعظيم) قدميه فى أثناء رفع قواعد البيت.

وقد فصل فى بحث الأثر الشريف كل ما يتعلق بهذا الحجر الميمون المبارك، وأين وجد؟ وكيف حفظ إلى الآن؟ وأين حفظ؟ كما فصل فى باب قدوم النبى الجليل إلى مكة المكرمة وكيفية سفره وشكل الحجر الميمون وهيئته المرئية ومبانيه فى هذا المكان الذى يرجى قبول الدعاء فيه.

بعد ما أنهى ابن الخطاب (رضى الله عنه) العمليات الخاصة بمبانى المقام الشريف أصلح وعمر الأماكن الأخرى لحرم المسجد الحرام، كما أصلح ما خرب

(١) أحد الأصحاب الكرام، ذكره ابن سعد فى مسلمة الفتح، انظر الإصابة ٦/ ١٠٤.

من السد الذى يطلق عليه «ردم بنى جمح». إن السيل الذى ظهر بعد تعمير سد «بنى جمح» قد فاض من جهة السد المذكور، وأخذ يصب إلى المياه الرمادية التى تراكمت فى سهل وادى إبراهيم؛ لذا أطلق على السيل الذى أتى من هذا الطريق اسم«سيل وادى إبراهيم».

إن المياه التى تتكون من الأمطار التى تنزل عل جبال مكة فى ذلك الوقت تشكل سيلين عظيمين وتدخل فى داخل المدينة وأحيانا تدخل حتى حرم الله وتخرب الأماكن المقدسة بالحرم.

إن السيل الذى قلنا عنه وادى إبراهيم أحد هذين السيلين العظيمين، وكان يظهر من جهة سد بنى جمح ويمر بوادى إبراهيم المذكور ويجرى نحو شمال الوادى.

هو أحد السيلين السالف ذكرهما وهو سيل مخيف مرعب. وكان هذا السيل يهبط من جبال مكة الجنوبية ويدخل إلى المدينة سالكا طريق محلات جياد، ويبلغ البركة اليمانية ويرتد من هناك ويجرى صوب أسفل البلاد.

وكان سد ردم بنى جمح الذى وقع بين المحلات المسماة فى زماننا «المدعى» فى أوائل ظهور الإسلام كان بيت الله بجانب السد المذكور الذى كان موجودا آنذاك، كان يبرز جمال هيئته لعشاق بيت الله وزواره.

ولما كان الدعاء مقرونًا بالاستجابة حال رؤية بيت الله؛ فإن الحجاج الذين يطئون هذا الموضع كانوا يجتهدون فى الدعاء.

وفيما بعد حجبت المنازل والبيوت التى أقيمت فى هذا الموضع رؤية البيت الأعظم؛ وعلى الرغم من ذلك ظل الدعاء على حاله كما كان فى الماضى إذ إنه من الثابت أن الرسول ﷺ قد وقف للدعاء فى هذا المكان. حتى إنه يشاهد على جانبى الطريق لافتة خاصة مكتوب عليها: (هنا محل دعاء).

رواية:

قال حافظ الدين فى كتابه «النافع» نقلاً عن صاحب الهداية: «كنت قد نويت الذهاب إلى مكة المعظمة لأداء مناسك الحج، وعندما استأذنت من شيخى وطلبت منه الوصية قال لى: إن ثمة مكان مبارك فى مكة يقال له «سوق الكراع»، ومن هذا الموقع الشريف تبرز كعبة الله المتعال فى جمال لا مثيل له، وعندما تصل إلى هذا المكان وتنال شرف مشاهدة جمال بيت الله، فعليك أن تدعو قائلا: «اللهم اجعلنى من عبادك الذين تستجاب دعواتهم» لأن الدعاء عند رؤية بيت الله رهين الاستجابة. انتهى.

بناء على ما ذكره أهل العلم والدراية من سكان مكة المكرمة أن سيل جياد يحدث مرة كل عشرة أعوام، ويطغى بشدة منقطعة النظير ويفوق سيل «وادى إبراهيم» إلى حد جد بعيد، ويملأ المسجد الحرام بالطين والحصى، ولقد بذل أشراف البلد وأعيانهم من السلف الصالح كل جهدهم وصرفوا كل همتهم إلى حفر كثير من القنوات تحت الأرض لاستيعاب جريان مياه «سيل جياد»، ولكن القنوات امتلأت بالمياه على مر الزمان ولم تخطر بذلك دواوين الخلافة، فاستمر تدفق السيل فى مجراه القديم تدفقا شديدا ـ حين حدوثه ـ وما زال يهدم البيوت ويخرب الكثير من المنازل.

٤ ـ سيل الحُجَاف: هو السيل الرابع الذى أفزع أهالى مكة المفخمة، ولقد ظهر هذا السيل فى عهد عبد الملك بن مروان، وفى خلال العام الثمانين من الهجرة النبوية.

وقد ظهر ذلك السيل فى وقت صلاة الصبح وكان الحُجّاج ذوى الابتهاج فى وادى مكة، وبدأ جريان المياه من قبل صلاة الصبح، ثم ازدادت شيئًا فشيًا فجرف السيل الحجاج القائمين فى محل الوقفة كما جرف أثقالهم وأمتعتهم إلى المسجد الحرام.

وأحاط بالبيت المعظم وهدم المنازل والحوانيت الكائنة فى ناحية الوادى وخربها، وأغرق كثيرا من الناس وأهلكم.

وبما أن الناس قد لجئوا إلى الجبال لإنقاذ أرواحهم تاركين أمتعتهم وأموالهم أطلق عل ذلك السيل اسم «سيل الحُجَاف». وحينما أبلغ هذا الخبر المخيف لعبد الملك؛ أرسل إلى مكة المعظمة الموظفين المختصين من قبله لبناء ما تهدم من البيوت، ولحفر مجارى السيل وتعميقها، وبناء جدران من الحجارة الكبيرة والمتينة حيث يستدعى البناء، وقدم للأهالى أموالا طائلة وأشياء لا تحصى وهكذا عجل بإظهار جوده وسماحته.

٥ ـ السيل الخامس من سيول مكة «سيل عمر بن عبد العزيز» حدث هذا السيل فى السنة السابعة والتسعين أو الثامنة والتسعين من الهجرة، وكان سبب ظهور هذا السيل دعاء عمر بن عبد العزيز، لأن عمر بن عبد العزيز كان قد غادر الشام بنية الحج متجها إلى الأراضى الحجازية الجالبة للغفران.

فاستقبله أشراف مكة وأعيانها وتحدثوا عن الجفاف قائلين: «يا سيدنا إن الحجاز ومكة معرضة للجفاف فى هذه الأيام، ويخشى من نقص الماء وإن أهل الحرمين فى أشد الاضطراب من هذا الأمر وفى شدة الحزن مما سيصيب الحجاج الكرام من العطش فى موسم الحج هذا العام. وهكذا أجبروا عمر بن عبد العزيز على دعاء الاستسقاء. وفى الحال هم الخليفة بدعاء الاستسقاء بكل ما أوتى من عقيدة قوية وإيمان صادق بناء على الاتفاق الذى تم بينه وبين الوفد المكى، واشترك فى الدعاء قافلة الحجاج التى صاحبته وكذلك الوفد المكى الذى جاء لاستقباله.

ولحكمة ما انهمرت الأمطار بطريقة لم يسبق لأهالى البلاد الحجازية أن رأوا مثلها من قبل. وجاءت السيول من جميع الجهات وأحاطت مكة المعظمة من

جهاتها الأربع، وعمر الحجاز بالخيرات وعم الخصب ورخصت الأسعار؛ وذلك ببركة دعاء عمر بن عبد العزيز.

٦ ـ السادس من سيول الحجاز سيل أبو شاكر: وقد ظهر هذا السيل فى السنة السادسة والعشرين بعد المائة الهجرية وفى عهد هشام بن عبد الملك. وكان «أبو شاكر» من أجلاء رجال الدولة، وكان ضمن قافلة من قوافل الحجاج وقد اضطرب اضطرابا شديدا من شدة صولة السيل، وأظهر قلقا لذا ذكر ذلك السيل العظيم بعد فترة ما «بسيل أبى شاكر».

٧ ـ من السيول التى خربت مكة المعظمة سيل مخيل: وقع سيل مخيل سنة مائة وثمانين واجتاح المسجد الحرام بقوة وسبب ضررا غير قليل. ولا يمكن حصر البيوت التى انهارت والأرواح التى أزهقت.

٨ـ السيل الثامن من سيول مكة «سيل حنظلة» ظهر هذا السيل فى سنة مائتين واثنتين وفى عهد الخليفة المأمون. وبما أن هذا السيل قد ظهر بقوة شديدة نقل مقام إبراهيم الهمام إلى مكان مرتفع خيفة انتزاع السيل له. وقد خرب هذا السيل المسجد الحرام، وهدم كثيرا من المنازل وأهلك بالغرق كثيرا من النفوس. ولما كان والى مكة فى تاريخ ظهور السيل يسمى «حنظلة» فسمى السيل «سيل حنظلة».

٩ ـ قد ظهر سيل آخر بعد سيل حنظلة بست سنوات سنة (٢٠٨)، وقد اقتلع هذا السيل العظيم أركانا كثيرة من المسجد الحرام، وهدمها كما سبب غير قليل من الخسائر والمضرات لأهل مكة، كما جلب فى ساحة المسجد الحرام السعيد كثيرا من الطين والرمل مما دعا إلى إشراك النساء فى خدمة تطهير المسجد الحرام. قد ظهر هذا السيل فى عهد الخليفة المأمون، وفى خلال السيل العظيم وسيل حنظلة تعرض الناس لمرض شديد ومات ما لا يحصى من الناس.

١٠ـ ومن السيول التى أفزعت الناس فى البلاد الحجازية سيلان وقع أحدهما وهو السيل العاشر بمكة سنة ٢٥٣ والثانى وهو الحادى عشر فى مكة فى سنة ٢٦٦. يعتبر السيل الذى وقع ٢٥٣ من الأحداث المهمة التى حدثت فى البلاد الحجازية، إذ دخل إلى المسجد الحرام وارتفعت المياه حتى وصلت إلى الحجر الأسود، وجلبت للمسجد خسائر عظيمة إلا أن السيل الذى حدث بعده بخمسة عشر عاما كان أكثر رعبا وفزعا. إن هذا السيل قد خرب المنازل والمدارس والحوانيت التى فى طريقه، وبخلاف هذا فقد جرف الرمال التى كانت تفرش ساحة الحرم الشريف، وقد بلغ شدة جريانه حدا أنه جرف معه كل ما يقع أمامه من الأجسام الثقيلة بدون قيد ولا احتراز، كما أنه اقتلع جميع الحجارة التى فى داخل ساحة المسجد الحرام.

وبعد هذه الواقعة أى بعد سيل عام ٢٦٦ ظهرت سيول أخرى خلال ٣٤٤ سنة، إلا أنه لا يعرف التاريخ أوقات ظهورها، ولكن مما يروى أنه فى خلال تلك الفترة هبطت على مكة سيول من الجبال التى تحيط بها، وهى سبعة سيول أو ثمانية، وقيل إنها كانت مفزعة رهيبة، وقد جرف إلى ساحة الحرم الشريف الأتربة وعظام الحيوانات وغير ذلك، وتحول داخل المسجد الحرام إلى جبال مما سبب لأهل مكة التعب الشديد فى نقل المخلفات وترميم ما خربته السيول وتعميره.

وقد نقل مؤلف «لطائف الأخبار» عن قاضى مكة برهان الدين بن ظهير فى ذلك الوقت «أن أشد السيول التى هبطت هو السيل الذى ظهر فى شدة مخيفة فى يوم الأربعاء الرابع عشر من ذى القعدة عام (٦٨٣) وكأنه شعبة من المحيط الهادى.

إن السيل الذى يذكره القاضى برهان الدين قد ملأ ساحة المسجد الحرام ذات الفيوضات الباهرة، وهدم كثيرا من أساطينه وخربها، وأهلك فى داخل الحرم الشريف وخارجه وأغرق خمسائة وسبعين شخصا.

قد ظل هذا السيل فى داخل الحرم الشريف ما يقرب من أربعة أيام، من يوم الأربعاء إلى يوم السبت وظلت المياه تتزايد بغزارة فى تلك الأيام الأربعة؛ إلا أنها أخذت فى النقصان يوم السبت، وقد أصاب أهل مكة من شدة هيجان ذلك السيل فزع شديد».

ويقول القاضى برهان الدين فى رسالة كتبها وأرسلها إلى مصر بعد أن تحدث عن وقت ظهور السيل ومدة بقائه فى الحرم الشريف «إن المسنين الذين عاصروا السيل يذكرون أن مثل هذا السيل لم ير له مثيل لا فى العصور الجاهلية ولا فى العهود الإسلامية.

إن المياه التى تجمعت فى ساحة المسجد الحرام، ارتفعت مقدار سبعة أذرع وثلاثة أرباع ذراع» وفى خاتمة رسالته أومأ إلى أن أهل مكة كانوا على حق فيما أصابهم من شدة الفزع.

١١ ـ من السيول التى يعرف التاريخ ظهورها السيل العظيم الثانى عشر الذى حدث فى سنة ١٥٣٨ الهجرية. إن السيل المذكور قد ظهر فى ليلة الخميس العاشر من شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة، واجتاح ساحة الحرم الشريف من البطحاء وارتفعت المياه قدر ذراع من فوق عتبة باب بيت الله، وأوقعت كثيرا من أبواب المسجد الحرام على الأرض.

وكان عدد الغرقى والموتى لا حصر له، ولم يكن بين أهالى مكة من رأى مثل هذا السيل العظيم؛ فلو لم يكف هطول الأمطار بعناية الله لما كان هناك شك أن كثيرا من حوانيت مدينة مكة المكرمة كانت ستخرب.

١٢ ـ من السيول الشهيرة السيل الذى ظهر مثل البحر بعد السيل الثانى عشر بأربع وستين سنة. وقد ظهر هذا السيل ليلة الخميس العاشر من شهر جمادى الأولى سنة ثمانمائة واثنتين. ودخل فى المسجد الحرام من جهة وادى إبراهيم واقتلع كثيرا من أبوابه وحطمها، وكانت كثرة الأمطار هى

التى تسببت فى ظهوره وقد اشتد هطول المطر حتى ظن الذى كان يراه كأنه ينسكب من أفواه القرب.

وقد بلغ ارتفاع المياه التى تجمعت فى المسجد الحرام خمسة أذرع، وارتفعت بمقدار ذراع ونصف ذراع من عتبة باب الكعبة المعلى. والماء الذى دخل الحرم بلغ من قوة جريانه أن هدم عمودين كبيرين، وهوى السقف الذى يحمله العمودان فمات ستون شخصا ممن كانوا تحته.

١٣ ـ وحدث السيل الرابع عشر الذى ألحق بأهل مكة أبلغ الأضرار بعد السيل الثالث عشر بثمانية أعوام. وقد ظهر هذا السيل فى اليوم الثانى والعشرين من شهر ذى الحجة من عام ثمانمائة وعشرة للهجرة فى وقت الظهيرة، وهدم السدود التى صنعت لتمنع المياه الفائضة من القنوات ومجارى العيون فى وقت ظهور السيول، وأغرق داخل البلد بالمياه وهجمت المياه بشدة ودخلت فى ساحة الحرم الشريف بشكل مفزع، وسرعان ما ارتفعت إلى الدرج الخاص بجلوس الخطباء فى المنبر الشريف.

وبلغ الخبر من قبل والى الإمارة إلى مقام السلطنة الذى عين مديرًا من قبله لإجراء ما يقتضى إجراءه؛ وأرسله إلى مكة المعظمة، وبادر المدير فور وصوله بتعمير السدود الخربة وتشييدها كما عمق قنوات عين زبيدة ومجاريها وجددها.

١٤ ـ من السيول التى أرهقت أهل مكة وآلمتهم السيل الخامس عشر الذى وقع فى خلال عام ثمانمائة وثمانين، ولم ير مثيل له لا فى خلال أعوام الجاهلية ولا العصور الإسلامية.

وبالنظر لما ينقله المرحوم الإمام السمهودى فإن السيل المذكور ظهر قبل وصول الحجاج إلى مكة، وغمر ما بين الجبلين وارتفع إلى أسطح المنازل الكائنة فى ناحية المعلى، ومن هناك اجتاح بقوة خارقة للعادة ساحة المسجد الحرام وألحق به خسائر جمة.

ولا يعلم إلا الله ـ تعالى ـ عدد ما انهار من البيوت وما حاقت بهم من الخسائر وما فاضت من الأرواح.

وعندما سحبت مياه السيل من المسجد الحرام أخرجت من تحت أنقاض المسجد الحرام جثث مائة وثمانين رجلا، ولم ير الطاعنون فى السن من أهل مكة سيلا يشبه هذا السيل الخطير.

١٥ ـ من السيول التى جعلت أهل مكة ينتفضون مضطربين: السيل الذى حدث فى اليوم الرابع عشر من شهر ذى القعدة عام ٨٨٧ للهجرة. وكان سيلا عظيما يخلع القلوب رعبا، وكان وقوعه فجأة فى اليوم المذكور واتجه نحو المسجد الحرام وسرعان ما تسرب إلى بيت الله وارتفع بطول قامة إنسان داخل الكعبة المشرفة، أما ما ترتب عليه من خسارة فلا يقع تحت الحصر فانهارت الدكاكين فى أرجاء البلد والمدارس والمنازل، وانهارت بعض أساطين المسجد الحرام ولم تقم صلاة الجمعة فيه.

وما كان فى الإمكان حصر عدد الهالكين تحت ما انهدم من أطراف المسجد الحرام وما بجانبه من الدكاكين والبيوت والمدارس، إلا أن سبعين جثة أخرجت من المسجد الحرام.

وكتب قاضى مكة الذى كان يتولى منصب القضاء إلى حكام مصر قائلا: «إن هذا السيل الذى وقع هذه المرة كان سيلا مفزعا حقا، فقد ظلت جدران المسجد الشريف الأربعة مغمورة فى الماء، وارتفع الماء على امتداد مساحته فى جانبه الأيمن والأيسر إلى سبعة أذرع وربع.

١٦ ـ من السيول التى أحدثت خسائر عظيمة فى مكة المكرمة السيل السابع عشر من تلك السيول العظيمة. ولم نستطع أن نعرف فى أى يوم من أى شهر وقع، إلا أن المياه قد غمرت الصحارى والسهوب والجبال والأحجار وملأ المسجد الحرام بالطين والحجارة وخربت المياه كثيرا من الدكاكين والبيوت بما

فيها من أمتعة وبضائع. وما كان فى مقدرة أحد أن يخمن عدد المتضررين، أو ما ألحق بالناس من أضرار هذا السيل، وبعد انحسار المياه وجدت مائة جثة فأودعت الثرى. ولم يرد منذ عصر الجاهلية أخبار عن سيل من السيول أبشع وأكثر رعبا من هذا السيل.

١٧ ـ السيل الثامن عشر ظهر بعد عام من ظهور السيل السابع عشر من سيول مكة. ولا يعرف فى أى يوم من أى شهر ظهر هذا السيل، إلا أنه قد تسبب فى ضرر كبير وأدى إلى تلف كثير من ممتلكات أهل مكة.

١٨ ـ السيل التاسع عشر وقع بعد السيل الثامن عشر بمائة وخمسين سنة (١٠٣٩)، وهو من السيول العظيمة التى أخافت وأرعبت أهل مكة. وقد غرق فى خلال هذا السيل عدد لا يحصى من الناس وأصاب أهل مكة بخسائر وأضرار لا يستطيع الإنسان أن يخمنها، وكان سببا فى هدم وسقوط أبنية الكعبة المفخمة[1].

١٩ـ من السيول التى أحصيت السيل العشرون الذى حدث فى سنة ألف وتسعين أما عدد الحجاج الذين ماتوا غرقا فى هذا السيل فيفوق الحصر وما أصاب سكان مكة من سوء وخسائر فلا يمكن معرفته بالتخمين.

٢٠ ـ وبعد مرور عام على سيل عام (١٠٩٠) ظهر سيل عظيم آخر هو السيل الحادى والعشرون الذى أورد أهل مكة مورد التهلكة وسبب لهم خسائر كبيرة. وبالنظر إل ما ذكره مؤرخو مكة فإن السيل المذكور وقع فى اليوم الثالث والعشرين من شهر ذى الحجة عام (١٠٩١) الهجرى. وقد وقع هذا السيل فى اليوم المذكور بعد صلاة الظهر بنصف ساعة على أثر هطول أمطار

(١) بما أن قد كتب فى الوجهة الثانية والصورة الثالثة عشرة ما أحدث هذا السيل من خسائر عند دخول المياه فى كعبة الله، وكيف أخليت الكعبة من الأشياء التى جرفها السيل لذا لم تعد هناك حاجة إلى تكرار ذكرها.

خفيفة وجاء من الجبال المتسلسلة التى تحيط بمكة وكان المطر قد انقطع تماما فى أثناء ظهور السيل.

وإن لاح فى بدء ظهوره سيلا خفيفا إلا أنه أخذ يتزايد بالتدريج، وتدفق تدفقا مرعبا ودام مدة طويلة حتى دخل المسجد الحرام، وجاوز ارتفاع المياه العتبة العليا لباب الكعبة السعيدة بذراع واحد، ودامت الحالة هكذا مدة أربع وعشرين ساعة، وأخذ جريان المياه يقل شيئًا فشيئًا حتى انقطعت المياه ووجد فى ساحة الحرم الشريف ما يقرب من خمس وعشرين جثة.

وكان فى ناحية المعلى شجرة جوز تحتها مقاهى متعددة، وعندما بدأ السيل وظهرت المياه تسلقها ما يقرب من مائة وخمسين نفرا من رواد المقاهى خائفين على أرواحهم من هول المنظر.

وحينما اكتسب جريان السيل شدة كان فى ظل الشجرة بضعة مقاهى؛ ولكن السيل المرعب قد اقتلع الدوحة العظيمة من جذورها وجرفها إلى أمام باب الصفا، والمساكين الذين لجأوا لأغصانها حماية لأرواحهم كان مصيرهم الغرق.

كما هلك غير هؤلاء كل هؤلاء الذين تصادف وجود حوانيتهم ومنازلهم على حافة جريان السيل، إذ انهدم ما يقرب من مائة وخمسين من تلك المنازل والحوانيت وفى داخلها أصحابها ولا يحصى عددهم إلا الله.

وقد امتلأت البركة اليمانية الكائنة فى الجهة الجنوبية لمكة المعظمة المقدسة بجثث الدواب النافقة وقد ثبت نفوق خمسة آلاف من الحيوانات التى تصادف وجودها فى طريق السيل.

وبعد انقطاع السيل المفزع فتح طريق يسمح بالطواف حول البيت وذلك بهمة والى مكة المكرمة وشهامته، واستعين بهذا الطريق لتنظيف جميع أرجاء الحرم الشريف وتطهيرها؛ إلا أن النظافة لم تصل إلى الحد المطلوب كما أن مجارى

السيل وقنوات عين زبيدة قد خربت تماما ولم تصلح للاستخدام، لذا أبلغ الأمر إلى السدة السلطانية لاستئذانه بتصليح ما خرب؛ فأرسل السلطان مدير أصطبلاته سليمان أغا ليقوم بالإشراف على التعمير وقد بادر المذكور بتطهير ساحة الحرم الشريف على الوجه المطلوب، كما أصلح مجرى السيل وقنوات عين زبيدة وعمقها وذلك فى سنة ١٠٩٢ الهجرية.

٢١ ـ السيل الثانى والعشرين الذى أضر أهالى مكة حدث فى سنة (١٢٧٨) وفى خلال أوائل سلطنة السلطان (عبد العزيز جعل الله مثواه الجنة). وبناء على بعض المعلومات المستقاة من مسنى مكة أن ذلك السيل كان أشد فزعا وهولا من سيل عام (١٠١٢).

وظهر ذلك السيل بينما كان الناس نياما فى ليلة من الليالى واجتاح الحرم الشريف وأحاط بالكعبة المعظمة هائجا مثل البحر لمدة أسبوع، وظل يتموج ولا يعرف أحد عدد الغرقى من الغرباء الذين ماتوا فى فتحة باب السلام.

قد وجد فى مجرى الماء الذى يبعد عن مكة المعظمة بساعتين أو ثلاث ساعات ظهرت جثث لفترة شهرين أو ثلاثة كما أنه قد غرق فى داخل المدارس والحوانيت خلق كثير.

وقد غرق جميع المساكين الذين وجدوا على الساحة المفروشة بالرخام[1] بين بابى ـ باب السلام ـ الداخلى والخارجى، ولم يبق فرد يتنفس من الناس الذين كانوا يبيتون فى داخل دكاكينهم فى سوق المسعى الشريف، أما الأشخاص الذين كانوا يقضون ليلهم تحت قباب الحرم الشريف فقد غرق أكثرهم. إلا أن قلة منهم قد تعلقوا بما تدلى من حبال من القباب فصعدوا فوقها بعدما لقوا فى ذلك تعبا شديدا ومشقة عظيمة حتى فازوا بالنجاة.

وبعد مضى أسبوع أخذت المياه تنحسر شيئا فشيئا، أما الناس شريفهم

(١) كان هذا المكان سوقا للكتب وكان مجلسا للغرباء والمساكين والشحاذين ليلا ونهارا.

ووضيعهم فشمروا عن ساعد الجد فى حماسة دافقة، وأقدموا على تنظيف الحرم الشريف وتطهيره مما جرفه السيل من الحجارة والتراب وغيرهما، وبصعوبة شديدة استطاعوا أن يطهروه فى خلال ثلاثة أشهر.

قد تكون فى داخل الحرم الشريف بما جلبه السيل من الكناسة والتراب أكوام كأنها تلال وجبال هنا وهناك.

وتحول كل واحد من أهالى مكة الكرام إلى فرهاد حافر الجبل[1]، إذْ أخذوا ينقبون تلك الجبال والتلال ويهدمونها ويفتتونها ثم يحملون الأحجار والأتربة إلى خارج البلد. ولا يعرف عدد من مات من الناس وما نفق من الحيوانات وما محى من أموال وأمتعة.

٢٣ ـ وفى عام (١٢١٣) ظهر السيل الثالث والعشرون من تلك السيول التى ألفت مكة أن تشاهدها. وهذا السيل كان سيلا هائلا، وما كان شبها للسيل الذى وقع قبله بخمسة عشر عاما إذ لم يتأذ الناس بأضرار كثيرة.

إذا لم يعمق طريق المسعى الشريف ـ وهو مجرى السيل كما ينبغى فإن ظهور السيول وجريانها سيكون شيئا طبيعيا، وكلما لاحت فى السماء قطعة من السحاب أصبح من المجرب أن يظهر السيل بعد ساعتين، وإذا ما أتى السيل نهارا لا يسبب ضررا كبيرا للناس، ولكنه إذا وقع ليلا يتسبب فى خسائر عظيمة للناس فى أموالهم وحيواناتهم.

(١) هو فرهاد الحفار أو الذى عشق (شيرين) جارية (كسرى) كان هذا الملك يحب شيرين حبا جما، واتصل بعلمه أن قلبها خفق بحب فرهاد وشاء أن يتخلص منه وأمره بحفر طريق فى الجبل، وضرب له موعدا قريبا ليعجزه عن ذلك، ووعده بأن يهب له شيرين إذا أنجز عمله فى موعده، وامتثل فرهاد لأمر كسرى وأنجز عمله قبل الموعد المعين، فأسقط فى يد الملك ولكن عجوزا احتالت لتخلص الملك من فرهاد وأخبرته بأن شيرين ماتت فصدم فرهاد وكره أن يعيش بعدها وألقى بنفسه من رأس الجبل. وهى قصة تداولها شعراء الفارسية والتركية والأردية بالنظم وضمنوها رموزًا صوفية. (المترجم).

وعلى ذلك فإن ما يصيب أهل مكة من أضرار من مياه سيل يتدفق فى العام مرة أو مرتين أصبح أمرًا مألوفا؛ إلا أن ما سبق ذكره من سيول مثل الذى وقع فى عهد (الفاروق الأكرم) المعروف بسيل (أم نَهْشَل) والسيل الذى وقع بعده بتسعة وستين عاما والذى عرف بـ (سيل حجاف) وما ذكر من سيول وقعت فى عام ثمانمائة وثمانية وثمانين وفى عام ألف وتسعة وثلاثين وعام ألف وتسعين أضرت بأهل مكة أبلغ الضرر.

ولاسيما السيلان اللذان وقعا فى عامى ١٠٩٠ و١٢٧٨ قد تسببا فى غرق وهلاك عدد لا حصر له من الحجيج وأهل مكة.

* * *

فى توسيع حرم المسجد الحرام للمرة الثانية

بعد سيل «أم نهشل» الذى سبق التعريف به آنفا بخمسة عشر عاما وفى العام السابع والعشرين من هجرة النبى. ﷺ أراد سيدنا عثمان بن عفان (رضى الله عنه المنان) توسيع ساحة الحرم الشريف أكثر من قبل وأراد شراء بعض البيوت القريبة من الحرم، إلا أن أصحاب تلك البيوت جأروا بالشكوى وألحوا فى التمسك بعدم الرضوخ لرغبة الخليفة، وأطالوا ألسنتهم بكلام مستهجن لايليق، فجمعهم الخليفة وقال لهم: «إنما أطمعكم فىّ ما أتصف به من حلم وحياء فأخذتم تصيحون وتطيلون ألسنتكم ولم تستطيعوا أن تخرجوا ألسنتكم بالسوء فى أيام سلفى» واستمر يوبخهم لفترة ما ثم أمر بأن يحبس ويؤدب كل الذين لايريدون تسليم منازلهم لتوسيع ساحة المسجد الحرام فجمع كل المخالفين وقبض عليهم وحبسوا.

إلا أن عبد الله بن خالد تقدم بالشفاعة لدى الخليفة ووفق فى تخليص جميع المخالفين، وأدخل الخليفة الأراضى التى استولى عليها من المخالفين المذكورين ضمن ساحة المسجد الحرام، فأصبح طول الحرم الشريف (٢٨٨) قدما و(٨) بوصات، وعرضه (٢١٢) قدما و (٦) بوصات، ورفع سور الجدار الذى بناه عمر بن الخطاب وأضاف إليه كثيرا من الأسقف، وبذلك اتسعت مساحة الحرم الشريف على النحو المرغوب، وبلغت عمارة الحرم الشريف غاية كمالها، وعندما استعد للعودة جاء وفد من أهل مكة ورجوه أن ينقل الميناء الكائن فى ساحة «الشعيبية» إلى جدة إلا أن صلاحية جدة لتكون مرفأ كان لابد من التأكد منه برؤية العين لذا تفضل بتشريف جدة بذاته ليكشف صلاحية المكان ويعاينه.

وقد عرف الخليفة أن شاطئ جدة أقرب إلى مكة المفخمة وطريقه خال من الخطورة، وأن جعل جدة ميناء أكثر أمنا وصلاحية من جميع الوجوه، وبعد أن أجرى فى هذا الخصوص التدقيقات والبحوث الكاملة بأن يترك تشغيل ميناء «الشعيبية» ويتخذ جدة مرفأ للسفن، وبما أن الاستحمام فى البحر كان مفيدا للجسم أمر بأن يستحم من كان معه فى البحر كما أنه بالذات! استحم فى البحر ثم عاد فى النهاية من طريق (عسفان) إلى قصر الخلافة فى مهجر النبى - ﷺ -

وبعد هذا التعمير بفترة[1] اشترى حضرة معاوية دار الندوة وضمها إلى ساحة الحرم الشريف، وفى سنة (٧٥) الهجرية قام عبد الملك بن مروان ببعض الإصلاحات فى الحرم الشريف، وكذلك فعل ابنه وليد بن عبد الملك فى سنة (٩١) الهجرية.

وقد أرسل إلى والى مكة عبد الله القسرى كثيرا من الأعمدة الرخامية، وكتب له موصيا بأن يعمر الحرم الشريف بشكل يليق بمكانته وليس هناك قبل الوليد من أرسل أعمدة رخامية لتعمير الحرم المكى.

* * *

(١) فى السنة الرابعة والأربعين من الهجرة.

فى توسيع حرم المسجد الحرام للمرة الثالثة

بما أن حرم المسجد الحرام قد أهمل خلال إحدى وأربعين سنة ولم يلتفت إليه بعد عمارة وليد بن عبد الملك، لذا بنيت الأسقف التى أقامها عثمان بن عفان وكذلك الأماكن التى أقامها عبد الله بن الزبير، كما بنيت الحجارة الرخامية التى أرسلها وليد بن عبد الملك، وزاد عدد أهل الإيمان فاقتضى توسيع ساحة المسجد الحرام، وبلغ الأمر إلى أبى جعفر عبد الله المنصور البغدادى؛ فما كان منه إلا أن وسع الحرم الشريف من ناحية جداره الشامى، وبدأ من حذاء المقام الحنفى إلى دار الندوة، كما وسع من جهة باب العمرة وأوصل إلى باب العمرة فى سنة ١٣٩ الهجرية.

أراد أبو جعفر أن يجدد الجهة الجنوبية من الجدار الذى يتصل بمسيل الوادى؛ ولكنه تركها على حالها حينما رأى أن تعميره غير قابل للإصلاح اشترى المنازل القريبة من الجدار الشرقى وهدمها، وألحق أرضها بالمسجد الحرام وبنى فى أماكنها مئذنة لا نظير لها. وزين أبو جعفر عقب ذلك جهات المسجد الحرام الأربعة بالذهب والفضة الخالصة والفسيفساء[١] النفيسة، وفرش داخل الحطيم الكريم بالرخام المجلى، وزينه وأتم التعمير فى خلال ثلاث سنوات ثم سجل كل ما تم صنعه فى زمانه على لوحة رخامية وعلقها على كمر فوق باب بنى جمح[٢] الكائن فى ناحية باب الصفا.

فى نفس العام الذى تم فيه التعمير وبلغ غايته من الكمال سافر «أبو جعفر»

(١) يطلق الفسيفساء على الأشياء الملونة الصغيرة المصنوعة من الزجاج والنقوش المختلفة التى تكسى بها جدران المبانى الفخمة.

(٢) إن هذا الباب كان الباب المتصل بباب الخياطين الذى يتصل بباب إبراهيم، وقد ضم المقتدر بالله العباسى باب إبراهيم إلى الحرم الشريف سنة ٣١١.

لأداء فريضة الحج وزيارة الحرمين، ورأى ما تم توسيعه وزيادته فى حرم المسجد الحرام فعبر عن ابتهاجه وسروره البالغ.

وكان أبو جعفر يتصف بصفة البخل الدنيئة، فكان يضرب به المثل فى شدة البخل إلا أنه ـ لحكمة ما ـ فاق ما قدمه من البر والإحسان جميع الكرماء الذين ظهروا من قبله إذ أكرم سكان الحرمين ومجاورى المسجدين وأحسن إليهم إحسانا عظيما[1] ثم ذهب لزيارة القدس الشريف.

وكان المنصور معروفا ـ بجانب بخله وتقطيره ـ بالظلم، ويروى أنه قتل فى أثناء حكمه الذى دام اثنتين وعشرين سنة ستمائة ألف من المسلمين وأيديهم مغلولة؛ كل ذلك ليقرب الناس منه وليحطم أصحاب الثروة والنفوذ فى الدولة وليخوفهم، وفى أواخر أيامه بيت سوء النية لقتل «سفيان الثورى» ـ رضى الله عنه ـ إلا أنه عندما خرج لأداء فريضة الحج للمرة الخامسة متجها إلى مكة المعظمة ووصل إلى المكان المعطر الذى دفنت فيه أمنا ميمونة ـ رضى الله عنها ـ، أمر والى مكة بإعداد مشنقة لشنق سفيان الثورى وفعلا قد تم إعداد المشنقة واتخذت جميع تدابير الشنق.

وعندما شاع هذا الخبر فى مكة كان سفيان الثورى قد امتد متوجها إلى الكعبة واضعا رأسه فوق ركبتى الفضيل بن عياض ورجليه فوق ركبتى سفيان بن عيينة.

قال أحد أولياء الله المحبين الصالحين: يا سفيان قد جاء المنصور قاصدا صلبك وإعدامك ووصل إلى بئر ميمونة وكتب إلى حكومة مكة حتى تعد مشنقة لصلبك، وقد أعدت فعلا مشنقة لذلك، وإذا ما استطاع هذا العدو الحاقد أن يضع يديه على جسمك الشريف إننا نتعرض لشماتة الأعداء، ونقع فريسة للمصائب والاضطرابات فقام سفيان من مكانه منتفضا، والتصق بستارة الكعبة المعظمة وقال بصوت مرتفع «لو وصل المنصور لهذا المكان فإننى لن أذكر الكعبة

(١) قد أعطى لكل واحد من أشراف قريش ألف (فلورى) ولم يكن هناك مكى يعرف إلى ذلك الوقت من أعطى له هذا القدر من النقود.

طول عمرى» ثم امتد مرة أخرى واضعا رأسه على ركبتى فضيل ورجليه على ركبتى سفيان بن عيينة[١].

وعقب ذلك وصل خبر هلاك المنصور وهو أنه كان يركب حصانا ووقع منه، وتناولت الأفواه الخبر فى أرجاء مكة. وبما أن دعاء سفيان قد استجيب فقد تحرك المنصور من بئر ميمونة ووصل إلى «الحجونين» الكائن بين جبلين حذاء مقبرة المعلى وسقط من فوق حصانه على عنقه ومات متأثرا بذلك.

يقول مؤلف (لطائف الأخبار) عمر بن فهد: ولما كان المنصور متسلطا على الناس يضطهدهم؛ خاف رجال السلطة من انتقام الشعب من جثته وأمروا بحفر مئة قبر ودفنوه فى القبر المائة، وأخفوا عن الناس القبر الذى دفن فيه وكتموا أمره. وكان سبب رغبة المنصور فى إعدام حضرة سفيان واستثقاله ما وجهه إليه من النصائح والوصايا.

اتفق ذات يوم أن التقى سفيان بالمنصور فى (منى)[٢] وقال له «يا منصور اتق الله رب الكائنات واذكر ما رفعك إليه من منزلة، لقد بلغت هذه المنزلة العالية بفضل سيوف المهاجرين والأنصار وأولادهم وأحفادهم وما بذلوه من جهد، والآن قد عصفت بهم صروف الدهر، وأما أنت فشحيح ممسك[٣] ولم يستطع عمربن الخطاب أن ينفق أكثر من خمسة عشر دينارا فى أثناء حجه، ومثله مثل الحجاج قد قنع بالجلوس تحت ظل شجرة، وأنا أعرف أن الرجل الحق هو من إذا ما ازدانت ذاته بالعلم والعمل أصلح حال الأمة وهذا الرجل هو من أتجه إليه بالخطاب فرد عليه المنصور فى حدة وغضب «هل تريد أن تساوى نفسك بى» فأجابه الشيخ قائلا «لا ، لا يجب أن تكون فى منزلة أقل مما أنت فيها وأنا فوق ما أنا عليها» فطرده المنصور من مجلسه.

(١) الخبر بطوله فى تهذيب التهذيب ٤/ ١١٤.

(٢) كان هذا اللقاء فى حج المنصور الأول.

(٣) كان قصد سفيان بهذه الجملة معرفة مدى بخل وخسة أبى جعفر لأن المنصور كان رجلا مقترًا يبحث عن حساب كل شىء حتى آخر دانق لذا اشتهر بلقب المنصور الدانقى.

سفيان الثورى:

إنه سفيان بن سعيد بن مسروق، أبو عبد الله الكوفى من قبيلة «ثور» بن عبد مناة بن أد بن طابخة، ويكنى بأبى عبد الله، ولد فى السنة الخامسة والتسعين الهجرية، واستجاب لدعوة ربه فى سنة مائة وستين، يروى أنه دفن فى البصرة إلا أن قبره فى النجف الأشرف، وبناء على هذا يقتضى وفاته فى النجف الأشرف رحمة الله عليه.

* * *

(١) أمير المؤمنين فى الحديث وحيد زمانه فى الفقه والحديث والزهد أحد الثقات الإثبات مقدم عند الجميع، أخرج حديثه الجماعة، وهو إمام من أئمة المسلمين. انظر ترجمته فى تهذيب التهذيب. ٤/ ١١١ ـ ١١٥.

obeikandl.com

فى توسيع المسجد الحرام وتزيينه للمرة الرابعة

قد وسع المسجد الحرام للمرة الرابعة «محمد المهدى العباسى وذلك حينما رأى فى أثناء حجه أن المسجد الحرام فى حاجة إلى التوسيع. وقد سافر بنية أداء الحج وزيارة الروضة النبوية المطهرة، واتجه إلى الحجاز الجالب للفيض الإلهى والمغمور بالغفران، وعندما وصل إلى مكة المكرمة أقام فى «دار الندوة» الخاصة بالخلفاء العباسيين، وهناك اطلع على أن الحرم الشريف فى حاجة للتوسيع والتعمير وظهرت لديه الرغبة فى إجراء ذلك. وفى أثناء ذلك شرف بالمثول بين يديه عبد الله بن عثمان بن إبراهيم من خدم الكعبة المعظمة.

وقال له «يا مولاى: أريد أن أقدم لك هدية لم تقدم لأحد من الخلفاء قبلك، وقدم له حجر (مقام إبراهيم) المبارك لأجل زيارته. سر (المهدى) من صنع (عبد الله بن عثمان) فأمسك بالحجر الشريف ومسح به عينيه ووجهه ثم قبله. ثم أمر أن يملأ أثر القدم فوق الحجر بماء زمزم وشربه، ثم بعث بالحجر الشريف إلى قصر حريمه فتشرفن برؤيته والتبرك به، ثم أعاده إلى عبد الله بن عثمان ليعيده إلى مكانه.

وعقب ذلك مثل بين يديه بعض الأشخاص من كبار خدمة البيت وقالوا له «مولاى! كثرت الكسا على كعبة الله، ومن المحتمل أن تنهار جدران الكعبة تحت ثقلها» وكأنهم كانوا يلوحون بأنه قد حان وقت تغيير الكسوة وتجديدها.

فأمر الخليفة بإزاحة ما تراكم على الكعبة من أكسية، ثم أمر بتعطير الكعبة بدء من أسطحها وداخلها وخارجها بالمسك والعنبر والعطور الأخرى، ثم ألبسها بثلاث طبقات من كساء ذا بهاء، ثم أمر بأن تبدل سلاسل القناديل التى فى داخل

كعبة الله بالذهب، ثم قدم عطايا وفيرة ثم اشترى المنازل التى بين المسجد الحرام والمسعى الشريف، وأمر بأن تلحق بالحرم الشريف وعاد.

وبناء على ما يرويه المؤرخون الذين اهتموا بما وزعه المهدى وأعطاه لأهل مكة من العطايا الملكية ونوعها ومقدارها فى ذلك العام إذ أنفق الخليفة فى تلك السنة ستمائة ألف ذهب جعفرى. وثلاثة ملايين درهم وخمسة عشر ألف ثوب من الثياب البغدادية الفاخرة وحمل خمسمائة جمل من الثلج والجليد، وهكذا حرر كل أهل مكة مما أثقلهم من الفاقة والخصاصة.

إن الشخص الذى عين فى مديرية بناء الحرم الشريف للقيام بإنجاز الأمر الصادر من قبل المهدى، استدعى أصحاب البيوت التى يقتضى هذا الأمر شراؤها، بعد عودة الخليفة وأوصاهم بأن يدفع لهم مقدار ثمانية وخمسين ألف مثقال من ذهب، ثم هدم المنازل المشتراة وضم عرصاتها إلى الحرم الشريف، وهكذا وسع الجدار الغربى للحرم الشريف إلى باب العمرة والجدار الجنوبى إلى «قبة الشرابة» المعروفة بقبة العباس وذلك فى سنة (١٦١هـ).

وإن كان متولى أمر البناء يرغب فى توسيع الجهة الجنوبية من الحرم الشريف أكثر، إلا أن المكان الذى يلزم إلحاقه كان متصلا بمسيل الوادى ولما كان إرساء الأساس فى مجرى السيل من الصعوبة بمكان فلم يستطع توسيعه، ومع هذا قد اتسع ما بين كعبة الله المعظمة وجدار الحرم الشريف الجنوبى قدر (٦٣) قدما.

بعد ما أتم متولى أمر البناء جلب كل ما ينقص الحرم الشريف من مصر جلب أربعمائة وثمانين عمودا حجريا، وركزها فى الأماكن الخاصة وصنع فوقها أربعمائة وثمان وتسعين قبة، وهكذا أحكم قبب الحرم الشريف التى تحيط به.

ثم أنشأ بين المسعى اللطيف والحرم الشريف بقعة غاية فى الزينة التى تعرف «بدار القوارير» وفى ختام التعمير عرض الأمر على مقام الخلافة العالى.

وكان قد بقى ميدان صغير عقب التعمير بين المسجد الشريف والمسعى اللطيف، فأخذ جعفر بن يحيى البرمكى وزير «هارون الرشيد» عهدة هذا الميدان، وفيما بعد استقطع عدة بيوت ومساكن ثم ساحة (دار القوارير) وأقام فى المتسع دارا منقطعة النظير.

وبعد مدة انهارت كل هذه المبانى ماعدا دار القوارير. واندرست أسسها وضاع أثرها وأقيمت فى مواضعها ربط حصينة، كما أن هذه الربط انهدمت على مر الزمان، ولكن السلطان (قايتباى) المصرى ابتاع هذه الربط بتمامها وهدم ما تبقى من آثارها، وبنى المدرسة والرباطان اللذان ينسبان لاسمه، وبنى بعض العقارات وأووقف ريعها للإنفاق على ترميم المدرسة والرباط المذكورين وتعميرهما.

والبيت الأنيق الذى بنى على أرض دار القوارير انتقل بمرور الزمان ليد جواد البربرى، وفرش جواد داخل ذلك البيت وزينه بالزجاج الملون، كما زين خارجه بالرخام المصقول المختلف الألوان، لكن ذلك البيت فقد قيمته بوفاة جواد، وانتقل المنزل من يد لأخرى ثم انهار وبنى مكانه الربط والمدارس.

ولما أبلغ متولى أمر المبانى (المهدى) بإتمام تعمير المسجد الحرام؛ رغب الخليفة فى زيارة أبنية المسجد الحرام الجديدة، وتوجه إلى مكة المعظمة ورأى أن ناحية مسيل الوادى لم توسع، وأن هناك فاصلة كبيرة بين البقعة المقدسة لبيت الله وبين الجدار الجنوبى للحرم الشريف، ورأى أنه إذا ما وسعت هذه الجهة سيضيف هذا إلى المسجد رونقا وجمالا زائدا، وستتوسط الأبنية المربعة للبيت الأعظم مساحة مسجد الحرام، واستدعى الموكلين ببناء المسجد، وأطلعهم على ما يجول فى خاطره وأمرهم بأن يجددوا ذلك المكان وفق اقتراحه ورأيه؛ ولكن متعهدى البناء قالوا إِذَنْ يجب أن تهدم جميع البيوت التى على الضفة المقابلة لمسيل الوادى، ويحفر مجرى آخر ويضم المسيل القديم كُلّه إلى الحرم الشريف، وهذا الأمر فى منتهى الصعوبة بل مستحيل.

لأنه يلاحظ أن السيول التى سترد من وادى إبراهيم ستهدم جميع الأبنية

الجديدة التى ستبنى بعد تغيير المجرى من أساسه، وستدخل المسجد الحرام وتخرب جدرانه؛ لهذا يجب شراء منازل كثيرة أخرى وهدمها حتى ترسى أسس جدران مجرى السيل الجديد، وهذا يقتضى مصروفات باهظة ونفقات لا تعد ولا تحصى.

وأرادوا أن يعلقوا رغبة المهدى إلى المستحيل بمثل هذه المغالطات الفكرية.

إلا أن (المهدى) أصر على رأيه وأكده قائلا: «إن التفكير فى النفقات من شأنى أنا وعليكم أن تبادروا من الآن أن تقوموا بعمل ما بينت لكم فقوموا بتقدير مساحة الموضع ووفقا للخريطة التى سترسمونها» وقد رأى القائمون بالبناء أن الخليفة لا ينثنى عن رأيه، فوجدوا أنفسهم مضطرين للقيام بالقياس، فركزوا الأعمدة فى المواضع التى ينبغى تركيزها فيها ومدوا الحبال.

وعينوا مقدار توسيع الحرم الشريف، ثم قدموا كل ما قيدوه فى مضابطهم مع الخريطة التى رسموها للموقع إلى الخليفة، ثم صعد الخليفة فوق جبل أبى قبيس ورأى أن أبنية الكعبة المعظمة قد توسطت الأعمدة التى ركزت وحددت بالحبال، أى أن الكعبة أصبحت فى وسط المسجد الحرام كما رأى عدد البيوت التى ستشترى وتهدم، ثم أمرهم بأن يبادروا فى تجديد الجدار بموجب خطه فى الخريطة، ثم عاد.

وبناء على هذا جلب العدد الكافى من العمال وشرعوا فى شراء المنازل التى توجد فى الأماكن التى يلزم ضمها وإلحاقها بالمسجد الحرام، وهدمت تلك المنازل، وهكذا وسعوا المسجد الشريف من باب (هاشم) إلى باب (أم هانئ) وبهذا أصبحت الفاصلة بين الكعبة المعظمة والجدار الجنوبى لحرم المسجد الحرام (١٢٧) قدم وست بوصات.

قد تمت هذه العمارة فى ظرف أربع سنوات كاملة، وكان فى ضمن البيوت التى اشتريت (دار أرزق) ودار (خيرة بنت سالم الخزاعى) وبيت (جبير بن

مطعم) ودار (شيبة بن عثمان) وقد ضُمَّتْ أراضيها إلى ساحة الحرم الشريف ذات الفيوضات، وهكذا وصلت الفسحة، ووسع الحرم الشريف بهذا القدر.

إن بنيان وتعمير الخليفة المهدى وصل إلى غايته وانتهى قبل أن ينتهى تعمير أبنية المسجد الحرام؛ إلا أن ابنه حينما اعتلى كرسى الخلافة وهو (موسى الهادى) أمر بإتمام تعمير أبنية المسجد الحرام، واستعجل ذلك فتم البناء فى أواخر سنة (١٦٩)[1].

* * *

(١) توفى الخليفة المهدى فى أوائل سنة (١٦٩)، وكان يحب الإحسان ولاسيما فى الحرمين الشريفين.
وقد أمر بحفر أحواض فى اثنى عشر موقعا من الطريق الذى يبدأ من بغداد وينتهى بمكة المكرمة، وسقى الحجاج شرابا مخلوطا، وعلق القناديل التى فى داخل بيت الله بسلاسل ذهبية.
وقد غير كسوة بيت الله القديمة سنة ١٥٨ وألبس «ليلى» هذه التى يعشقها العالم ملابس جديدة، وأصبح منذ تلك الليلة تغيير كسوة الكعبة الشريفة عادة بين المسلمين.
قد جدد حجر إسماعيل وكذلك الأميال التى توجد فى مراحل الحج ومنازله، وقام بحفر الآبار فى الموقع التى فى حاجة إليها، وكذلك جعل إرسال الصرر لأهالى الحرمين بين الخلفاء عادة، ولم يكن أحد يرسل الصرر إلى الحرمين قبله و قد عطر سطح كعبة الله فى سنة حجه بالمسك والعنبر، وكذا غالبية الأماكن وجميع أركانها وألبس كعبة الله ثلاث طبقات من الكسا الحريرية طبقة فوق طبقة.

obeikandl.com

الصورة الخامسة

فى شتى ضروب تعمير المسجد الحرام وتزيينه العرض والبيان

الباب المعلا ـ خلعت عضادة باب كعبة الله المكفت بالذهب بمعرفة الحكومة، فى عهد الفتنة التى قامت عام ٢٥١ هجرية، وألواحه الذهبية كذلك فى عام ٢٦١ هجرية وصرفتها للإنفاق منها للقضاء على الفتن والاضطرابات، وقد حفر جب عميق فى الجاهلية لتحفظ فيه الأموال والهدايا الثمينة المرسلة من قبل أكاسرة الفرس وملوكهم تعظيما للكعبة وتفخيما لها بغية حمايتها من نهب الأشرار المغيرين ثم غطى الجب. وكما أن المجوهرات الثمينة المتنوعة المهداة منذ عصر إبراهيم (عليه الصلاة والتسليم) وضعت فى داخل هذا الجب إلا أن هذا الجب لم يكن (الأخسف) الذى حفره إبراهيم ـ عليه السلام ـ بل كان حفرة أخرى، فى داخل كعبة الله.

وقد عثر عليه قائد المجاهدين ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى عام الفتح وأمر بفتحه، وأخرج منه أشياء ثمينة من ذهب وغيره لا تعد ولا تحصى من هدايا الملوك والأمم.

واستصوب أن تحفظ في خزينة بيت الله الأعظم وكان مقصد سلطان الأنبياء من هذا تعليم أمته أنه يجب ألا تمتد الأيدي على أموال كعبة الله.

كما أنه هدم بيت الله وبناه من جديد ليؤلف قلوب قريش. قد استصوب حيدرة[1] الكرار ـ رضي الله عنه ـ استخراج تلك الأموال وإنفاقها في أمور الجهاد، وكان ذلك في أول مرة في عصر النبوة السعيدة وفي المرة الثانية في عهد الصديق ـ رضي الله عنه ـ واضطر أن يسكت إذ أخذ الرد بالنفي من كليهما.

(١) من ألقاب أمير المؤمنين على بن أبى طالب (رضى الله عنه).

وأراد الفاروق الأعظم في عهد خلافته أن يقسمها بين المسلمين وأن يوزعها عليهم إلا أن أبا شيبة بن عثمان ـ رضي الله عنه المنان ـ قال له:

«يا عمر: كيف تتنكب أثر النبي الكريم والصديق المحترم؟ وقد نبتا في حياتهما على الاحتفاظ بتلك الأموال فى خزينة بيت الله «فصدق على قوله قائلا: «إنهما قدوة الأنام وإمامان واجبا الاحترام ويجب علينا أن نقتدي بآثارهما «وقرر على حفظ تلك الأموال فى خزينة كعبة الله.

وفي الواقع لم تمتد يد إلى خزانة بيت الله فترة طويلة بناء على القرار السابق، ولكن وآأسفاه أن الثائر «حسين الأفطس»[1] هجم على مكة المشرفة واستولى عليها بتحريض خبيث من بعض السفلة وأخذ الأموال المحفوظة في خزينة بيت الله منذ الفتح قائلا: ما جدوى هذه الأموال للكعبة؟ إننى سآخذها وأنفقها فى أمور الجهاد، ثم ابتدر في تبذيرها وتوزيعها كما يحلو له منذ ذلك الوقت انقطع إرسال الهدايا إلى خزينة بيت الله من قبل الملوك إذ غلبت عليهم فكرة ظهور غاصب آخر يستولى على الهدايا المرسلة لبيت الله المعظم.

وبعد نهب حسين الأفطس الأموال التي كانت مدخرة في خزينة بيت الله المعظم وإنفاقها باثنين وخمسين سنة بعد هذا الحادث، ظهرت فتنة إسماعيل السفاك.

قد رفع السفاك المذكور علم العصيان بغتة وهجم على مكة فَفَرَّ وَالِيْهَا ثم اقتحم مقر الحكومة ونهب كل ما يخص من أموال الوالى وأتباعه وأشياعه وكسوة كعبة الله وخزينتها وجمع من الأهالى مائتى ألف قطعة ذهبية بالقوة واتجه إلى دار الهجرة وهو يقصد قتل حاكم المدينة المنورة إلا أن الحاكم قد عرف قدومه فاختفى عن الأعين فعاد السفاك يائسًا آيسًا إلى مكة حيث ضيق على أهلها وحاصرهم فكان سببًا فى موت كثير من الأبرياء من العطش والجوع. وأغار فى فترة ما على جدة ونهب أموال التجار وتجرأ على أن يقطع طريق مكة وأن يعلن الحرب على الحجاج الذين ذهبوا إلى عرفات لأداء شعائر الحج وقتل منهم ألف

(١) انظر: تاريخ الطبرى ٨/ ٥٣٦ ـ ٥٣٨.

ومائة نفر فاستشهدوا وهم يلبسون ملابس الإحرام. ونهب أموال المسلمين الذين لجئوا إلى قمم الجبال فى هذه الاضطرابات والفتن فى سنة (٢٥١)، أما المسجد الحرام فقد أهملت العناية به بسبب هذه الاضطرابات إحدى وعشرين سنة، وبناء على هذا ظهر الخلل المفضى إلى الانهيار فى الجدار للمسجد الحرام، كما أن البيت الذى أقامته السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد قد تقادم وأوشك على الخراب، وكانت هذه الدار متصلة بالجدار الغربى للحرم الشريف وبدا فيها البلى جليا، مما أفضى إلى انهياره بغتة فتسبب بذلك فى هدم الجدار الغربى للحرم الشريف وخربه فمات تحت أنقاضه عشرة أشخاص. وقد بلغ الأمر لحكومة بغداد بالتفصيل، وحينئذ أمر الخليفة (الموفق بالله العباسى) بهدم الجدار من أساسه ليقام من جديد كما ينبغى أن يكون وذلك فى عام ٢٧٢.

أما (دار الندوة) التى أقيمت لسكنى خلفاء بغداد فيها، فأصبحت ميدانا تراكم فيه القمامة بعد أن تهدمت وأصبحت أطلالا مستقبحة المنظر وكان السيل الذى يأتى بين الفينة والفينة تتجمع مياهه فى ذلك الميدان وتجرف معها الكناسات إلى ساحة المسجد الحرام فتملؤها وتفسدها، كما أن سقوف الحرم الشريف تقادمت وقد امتزج المطر فى أماكن مجرى السيل، وعلت فأصبحت مياه السيل تفيض وتدخل فى داخل الحرم الشريف وتزيل حصى جدران الكعبة الداخلية وفسد الرخام على سطحها حتى أصبحت إقامة الصلاة فى داخل المسجد الحرام فى حكم المستحيل.

إن اللوحة الفضية المزخرفة التى ألصقت بدلا من اللوحات الذهبية لباب كعبة الله ذات الفيوضات التى كانت قد انتزعت من قبل واستخدم ثمنها لدفع الفتن والزخارف الثمينة قد محيت فى أثناء تضرعات الحجاج وتوسلاتهم فأصبح أعلى الباب فى لون وأسفله فى لون آخر، كما فسد رخام الحطيم وأرضية المطاف الرخامية كذلك داخل البيت الحرام وخارجه وجميع جهات ساحة المسجد الحرام قد تضررت.

قد أخبر الشريف عج ابن حج بالاتفاق مع (محمد بن عبد الله) شيخ مكة المعتمد بالله العباسى بجلية الأمر كما ابتدر بعض خدمة كعبة الله بالذهاب إلى بغداد وبينوا الوضع شفهيا للخليفة وأوضحوا له أن هذه الحالة تدمى قلوب أهل الإيمان، وأنه إذا ترك الحال كما هو فالمظنون أنه سيفتح بابا لمصروفات كبيرة فى الأيام القادمة.

وكان لهذا القول أثر كبير فى نفس الخليفة، فأمر بتعمير الأماكن المتضررة من المسجد الحرام وكذلك البقعة المقدسة لكعبة الله وهدم دار الندوة وبناء مسجد مكانها كما أمر بحفر وتطهير مجرى السيل المتصل بالجدران الشرقية والجنوبية، حتى يصل إلى عمقه القديم وذلك لحماية الحرم الشريف من مياه السيول التى يتوقع حدوثها. وبعث مبالغ طائلة مع مندوب خاص له.

وبمجرد ما وصل رجال الخليفة من بغداد إلى مكة ابتدءوا فى تعمير المسجد الحرام فى خلال سنة (٢٨١).

وغطوا باب كعبة الله بصفائح ذهبية خالصة العيار كما كان من قبل. ثم أخذوا فى حفر الأماكن التى سبق شرحها. ثم حفروا سبعة أدراج من السلم المطل على مجرى السيل والتى كانت قد غاصت فى الطين إلى أن ظهر الدرج الأخير. ثم هدموا أبنية دار الندوة وبنوا فوق أرضها مسجدا منفصلا ثم قسموا الجدار الذى ظل بين هذا المسجد والمسجد الحرام وفتحوا ست بوابات كبيرة الارتفاع كل واحدة منها سبعة عشر قدما وعرضها سبعة أقدام وبوصة واحدة، كما فتحوا أبوابا صغيرة بين كل اثنين من البوابات ارتفاع كل واحد منها أحد عشر قدما وأربع لنيات وعرضه ثلاثة أقدام وثلاث لنيات. وفتحوا للخروج من مسجد الندوة بابين بابا من جانبه الشمالى وبابا واحدا من جانبه الغربى ثم غطوا فوق الأبواب بأسقف عالية وأروقة معينة ثم صنعوا له مئذنة. إن هذا التعمير قد اكتمل سنة (٢٨٤) وظل شكله كذلك اثنتين وعشرين سنة، ولكن رئى مؤخرا أنه يوضع بشكل أجمل وبناء على الأمر الذى صدر من دار الخلافة إلى والى

مكة المعظمة القاضى محمد بن موسى بتجديد مسجد دار الندوة فقام به، كما عمر وقوى كمر الأبواب التى فتحت فى جدار الحرم الشريف، وقد فعل ذلك بحيث يمكن لمن يقف فى داخل الأرض الزائدة عن دار الندوة يستطيع أن يرى الكعبة المعظمة بكل سهولة.

ثم ركز أعمدة مستديرة مصنوعة من الحجارة السوداء المنحوتة، وربط ما بين الأعمدة بالأكمار القوية المستحكمة وصنع سقفا منقوشا من خشب الساج الملون بألوان مختلفة، وضم مسجد دار الندوة لساحة المسجد الحرام فى سنة (٣٠٦) وإن ظل الحرم الشريف إلى عهد المقتدر بالله على شكله الذى عرفناه دون زيادة أو نقصان ودون تغيير أو تبديل. إلا أن الخليفة المشار إليه اشترى الأرض الزائدة عند باب إبراهيم عند استعلائه العرش. وضمها للحرم الشريف ثم أنفق لسكان الحرمين المحترمين من الزوار (٣١٥٤٢٦) عددا من الذهب الفيلورى[١] ثم اتخذ لنفسه عادة إرسال ذلك القدر من الصرة كل عام سنة ٣١١[٢].

زيـــادة:

إن باب إبراهيم منسوب إلى شخص اشتغل بالخياطة ويسمى «إبراهيم» كان لهذا الشخص بجانب الباب المذكور حانوت كبير نوعا ما وكانت شهرته فى صنعته ذائعة.

وقبل أن تلحق الأرض الزائدة لباب إبراهيم كان هناك قرب (باب حزورة) باب (الخياطين) المتصل برواق الحرم الشريف، وكان بجانب هذا الباب بابان شهيران باسم (حجج) وكان خارج هذين البابين دار السيدة (زبيدة) زوجة هارون

(١) إنه يساوى بقيمة العملة الحالية ١٥٧٧١٣٠٠ قرش وسنتحدث عن الذهب الفيلورى فى بحث المسكوكات ونبين قيمة تداوله.

(٢) إن إرسال الصُّرَر يُعَدُّ سنة من آثار الخليفة المقتدر بالله الخيرة وبناء على تحقيق كاتب جلبى أن إرسال الصرة إلى عهد ذلك الخليفة لم يكن من عادة الخلفاء وأن فقراء أهل الحجاز كانوا ينالون نصيبهم من مرتبات مستخدمى الحكومة وكان قدره مليونا وخمسمائة ألف قرش، وكانت مائة ألف من هذه النقود ترد من اليمن وخمسمائة ألف من البحرين وثلاثمائة ألف من عمان وستمائة ألف من اليمامة.

الرشيد. ومع مرور الزمن قد مال ما بين منازل زبيدة وباب حجج للخراب، وقد تهدمت تلك الأماكن فى عهد الدولة العثمانية الباعثة للتعمير، واتخذت شكلا آخر ولم يبق الآن أثر لأى من دار السيدة زبيدة ولا من الميدان الواسع الذى سبق ذكره. انتهى.

وظل الحرم الشريف بعد تعمير المقتدر بالله العباسى ما يقرب من خمسين عاما على نفس الحالة.

وفى خلال هذه المدة لم تمتد يد التعمير إلى الأماكن التى تحتاج إلى الإصلاح، فتلف معظم رخام المطاف فاستحالت الصلاة عليه، كما لم يكن فى الإمكان السير عليه، لذا بدل معظم رخام المطاف الشريف فى عهد المستنصر بالله العباسى وعمر تعميرا جيدا ثم كتب فوق قطعة رخام هذه السطور:

(بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بعمارة هذا المطاف الشريف، سيدنا ومولانا الإمام الأعظم مقتضى الطاعة على سائر الأمم أبو جعفر منصور المستنصر بالله أمير المؤمنين، بلغه الله آماله وزين بالصالحات أعماله، وذلك فى شهور سنة إحدى وستين وثلاثمائة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم).

ثم علقت وألصقت على الجدار الشرقى الملاصق لحفرة مقام جبريل والكائن فى جهة مقام إبراهيم لكعبة الله. فى سنة ٣٦١.

وبعد مرور ست سنوات على العمارة التى قام بها المستنصر بالله العباسى وفى عام ٣٦٧هـ بنى فاعل خير يسمى الأمير شرف الدين على يمين الداخل من باب السلام مدرسة لا عيب فيها وألحق بها دار كتب وملأ أصونتها بكتب متنوعة لا حصر لها[1].

وفى سنة ٥٤٢ أصلح المقتفى بالله العباسى السلم الذى يؤدى إلى سطح

(١) قد خربت هذه المدرسة ودار كتبها فيما بعد ونقلت كتبها إلى قاعات الدروس فى الرباطات ولكن مع الأسف تعرضت تلك الكتب للنهب والسلب فى خلال ثورة سنة (٤٦١) كما انهار ذلك الرباط ومكتبته وأصبحا خرابا.

الكعبة المشرفة. وبعد عشرة أعوام من تعمير الخليفة المقتفى بالله تقادم باب الكعبة وانكشفت أخشابه واستوجب الإصلاح. وفى خلال عام ٥٥٢ أمر الخليفة المقتفى بالله بتغليف الباب المذكور وتزيينه بصفائح الذهب والفضة وبسبب الزلزال الذى وقع بعد سبع سنوات تعرض الجدار اليمانى لبيت الله المعظم للسقوط والانهدام فبادر المستنجد بالله بن المقتفى بالله بإصلاحه وتعميره فى سنة ٥٥٩.

وقوع حريق فى الحرم الشريف للبيت العتيق:

فى ليلة السبت من أواخر شهر شوال عام (٨٥٢) هجرية اندلعت النار فجأة من غرف رباط رامشت المتصل بباب حزورة وباب زيادة إبراهيم، وامتدت النار إلى جهة الشمال والغرب للحرم الشريف، وأحرقت سقوفه مع (١٣٦) عمود من الأعمدة الرخامية، وانطفأت النار بجانب باب العجلة، لأن السيل الذى حدث قبل الحريق المذكور قد دخل فى المسجد الحرام و أوقع كمر عمودين صلبين عند الباب السالف الذكر وخربه فحدث فاصل كان سببا فى انطفاء الحريق، ولو لم يكن ذلك الفاصل موجودا كان من المحتمل أن يستمر الحريق ويمتد، وأبدى موظفو الحكومة وأهل البلاد همة عظيمة فى إخماد الحريق ولكن جميع الجهود ضاعت سدى ولم تنفع فى إخماد الحريق، ولم تعد الأماكن المحترقة صالحة لأداء الصلاة فامتنع المصلون عن الصلاة فى تلك الأماكن مدة طويلة.

ويرى بعض المدققين أن ظهور السيل العظيم الذى هدم العمودين بالقرب من باب العجلة محدثا الفجوة التى سبق ذكرها كان مقدمة لهذا الحريق؛ لأن هذا السيل بدخوله الحرم الشريف ارتفع إلى محاذاة القناديل المعلقة بالأعمدة التى تحيط بالمطاف الشريف، ودخلت المياه فى داخل البيت الحرام من خلال مصراعى باب الكعبة وأسقط العمودين بكمرهما بالكائنين بجانب باب العجلة كما خرب كثيرا من البيوت الرصينة فى داخل المدينة، وقد سكت بعض المؤرخين عن تعيين سبب الحريق، وقال بعضهم إن أحد سكان رباط رامشت أوقد مصباحه وخرج خارج حجرته، وعقب ذلك ظهرت نار من تلك الحجرة، وأحاطت بالأطراف

وأحرقت الحرم الشريف، وإذا نظرنا لهذه الحالة فعلينا أن نفهم أن فأرا قد حمل فتيل ذلك المصباح المشتعل وتسلق سقف الحجرة وانتشرت النار من ذلك الفتيل إلى أطراف السقف وتسبب فى الحريق.

تجديد المسجد الحرام:

ذاع خبر الحريق فى جميع البلاد الإسلامية وتأثر الجميع من هذه الواقعة التى تنفطر لها الأفئدة، فلما سمع بذلك الملك الناصر أبو السعادات فرج بن برقوق وهو من ملوك الشراكسة فى مصر أراد تجديد الحرم الشريف وإصلاح أماكنه الأخرى؛ فعين الأمير ببسق الظاهرى أميرا للحج، وعهد إليه بوظيفة أمانة الأبنية المقدسة السامية وأرسله إلى مكة المكرمة فى سنة ٨٠٣.

ووصل الأمير ببسق إلى مكة المكرمة وقام بتنفيذ ما عهد إليه فأمر بتطهير ساحة المسجد الحرام وتنظيفها وكذا الأماكن التى تعرضت للحريق وتعميق حفر الأسس، ثم بادر إلى جلب ما تمس الحاجة إليه من الأحجار والأخشاب، وأسرع بتجديد البناء وتحتم تجديد الجدران فى أواخر عام سنة ٨٠٤هـ، وفى ظرف ثلاث أعوام أتم تجديد السقوف ثم أخذ يجدد السلاسل التى تعلق بها القناديل وفعلا علق القناديل التى أعدها من قبل، ثم أصلح وعدل مقامات الأئمة الأربعة[1] والمواقع التى تحتاج إلى التعمير على خير وجه، ثم عاد وكان قد جلب الأخشاب التى استخدمها لإصلاح السقوف الشريفة من قاهرة مصر فى سنة (٨٠٧).

وكان الأمير ببسق المصرى قد ترك أرض «رباط رامشت» المحترق على حاله

(١) قد جدد المقام الحنفى وعمره على التوالى ابن السلطان برقوق المصرى فى سنة (٨٥٧)، ثم الملك جاقمق المصرى فى سنة (٨٤٣)، ثم السلطان مراد خان الثالث فى سنة (٩٢٣)، وبعده بستة وعشرين عاما وفى سنة (٩٤٩) السلطان سليمان، وفى سنة (١٠١٧) السلطان أحمد خان، وفى سنة (١٥٤٣) السلطان مراد خان الرابع، وفى سنة (١٢٥٩) هـ السلطان عبد المجيد خان. وكان التعمير فى عصر برقوق وعصر جاقمق (٩٢٣) و (١٠١٧) هـ وجدد فى عام (١٠٤٣) من حجر شمليس، كما جدد (المقام الشافعى) فى سنة (٧٠٧) من قبل برقوق المصرى. كما جدد المقام المالكى والحنبلى فى سنة (١٠٤٣) من قبل السلطان مراد خان الرابع من حجر شمليس.

وإن كان بقاء هذه الأرض المحترقة فى حالة خراب سيؤدى إلى أن تكون مقلبا لقمامة الحوانيت التى حولها، كما أنها ستحول دون النظام والنظافة المرجوان فى مكة المكرمة، فأراد الشريف حسن بن عجلان أن ينظم أزقة مكة المكرمة على قدر المستطاع.

كما أنه جدد الرباط المذكور وطهر جوانبه ونظفه رغبة فى البر والخير ولإيواء المحتاجين والمجاورين، ثم جعله وقفا لسكنى الغرباء فى سنة (٨٠٧).

كان السلطان غياث الدين المعظم أرسل النقود التى صرفها الشريف ابن عجلان مع رسول يسمى ياقوت وأمره بصرف جزء منها فى إنشاء مدرسة ورباط والتصدق بالجزء الآخر على الفقراء، وكان مع ياقوت هذا رسالة موجهة إلى الشريف حسن بن عجلان يبين فيها السلطان أن ياقوت قد ألحقه بمأمورية خاصة، كما أنه قد أذن له بإنفاق النقود التى أرسلها، ولما وصل ياقوت إلى مكة المعظمة أعطى الرسالة المذكورة إلى الشريف حسن بن عجلان، كما أنه ترك النقود التى رخص له بإنفاقها أمام الشريف الذى نحى ثلث النقود جانبا ووزع الباقى على الفقراء. وبنى ياقوت بالثلث الموقوف من النقود مدرسة ورباطا، وعين أربعة من علماء المذاهب الأربعة مدرسين على ستين طالبا من الذين اختارهم وهيأ لهم جميع ما يحتاجون إليه من المعونات.

كما أنه أصلح طرق «عين بازان» والبركة الخربة فى المعلى وأجرى مياه العين المذكورة إلى هذه البركة؛ وذلك وفق تعليمات شهاب الدين الذى عينه الشريف حسن مساعدا له.

ويروى أن الشريف حسن بن عجلان أخذ من ياقوت لبناء الرباط والمدرسة باسم السلطان غياث الدين سبعة آلاف مثقال من الذهب، كما أخذ لتعمير العيون خمسة آلاف مثقال من الذهب، كما أنه استولى على الصدقات التى أرسلت إلى أهالى المدينة المنورة.

وسبب ذلك إصرار محافظ المدينة ألا يكون تحت إمارة الشريف وفق الأصول الجارية فى ذلك العصر. ومن عادات زمن إمارة الشريف حسن بن عجلان أن يأخذ ربع الأموال والأمتعة التى يمكن إخراجها إلى البر من السفن التى ترسو على الشاطئ فى سواحل جدة والشعيبية ويقتسمها مع الأشراف.

إن السفينة التى كانت تحمل الأموال التى بعثها الملك غياث الدين الأعظم قد تعرضت لحادث إلا أنه أمكن إنقاذ معظم حمولتها، وأخذ حسن بن عجلان ربع الأموال التى أنقذت وفقا لعادات ذلك الوقت، إلا أنه اغتصب جميع الأموال التى أرسلت إلى دار الهجرة، وهكذا ظلم أهالى المدينة المنورة وغدر بهم.

إن تجرؤ الشريف حسن بن عجلان على التصرف بشكل يخالف عادات الأشراف كان سببا فى عصيان محافظ المدينة المنورة السيد حجاز وطغيانه، ولكن لشدة الأسف أن هذا العجلان قد كان سببا فى خذلان عامة أهل المدينة، وبعد مرور أربعة أعوام على تجديد هذا الرباط انهارات قنطرة المروة فأصلحها الناصر فرج الذى كان من ملوك الشراكسة فى مصر وفق طرازها القديم فى سنة (٨١١)هـ[1].

* * *

(١) إن هذه القنطرة كانت فوق الجبل الذى يطلق عليه جبل المروة وبما أنها أنشئت عندما فتحت البلاد الحجازية أصبحت تعد من الآثار العتيقة.

في العام الذي انهار كمر المروة وسقط اشترى ملك البنغال الشاه غياث الدين بن إسكندر الأعظم منزلين متصلين بباب أم هانئ، وأسس أربعة مدارس مكية من أجل علماء المذاهب الأربعة، ورتب لها وقفا لشراء كثير من العقارات، وعين لكل مدرسة مدرسا من المذاهب الأربعة وخمسة عشر طالبا لكل مدرسة، وتكفل بإعاشتهم.

وأصلح طرق عين عرفات وعين بازان وبركة المعلى ونظفها كما ينبغي فأجرى المياه إلى مكة المكرمة في سنة ٨١١.

فائدة:

إن بلاد البنغال الآن من مستعمرات إنجلترا الشرقية وتقع بين خطي عرض (١٦) و (٣١) شمالا وبين خطي طول (٤٧) و (٩٦) شرقا ومساحتها (٣٥٨٧٦٩) ميلا مربعا، وعدد سكانها (٩٧١٠٠٠) وهي ولاية كبيرة ومهمة، وتنقسم إلى ثلاث أقسام (العليا، الوسطى، السفلى)، وتشمل مدنا كثيرة مثل كلكتا، باتنة، مرشد اباد، دكاو، بناري، بريلي، عصم واراقان، وتحد البلاد المذكورة شمالا نابول والبوتان، وشرقا عصم وجنيخ، وجنوبا خليج البنغال وأجزاء من ممالك أوربا، وأراقان، كما تحدها من الغرب ولاية بهار التي تحيطها بأراضيها، كما أن نهر غنخ يفصل هذه البلاد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي.

مدينة كلكتا وهي حاضرة بلاد البنغال ومقر حكومة الهند، وفي الجهة الشرقية من وادي حو تملي الفرع الغربي لنهر غنج، وتبعد عن شاطئ المحيط بما يقرب من مائة ميل، ويبلغ عدد سكانها (٧٠٠٠٠٠) نسمة وفق الإحصاء الذي أجري سنة

(١٨٤٢) الميلادية، ولذا سميت هذه المدينة الشهيرة قالكوتة لوجود كوتة معبد الهنود الشهير فيها والذي يضم في داخله الصنم المسمي بـ «قالي» من آلهة الهندوس القديمة، من هنا اقتضي إطلاق اسم قالكوتة على المدينة. انتهي.

وبعد سقوط كمر باب المروة بثلاث سنوات أصلح سطح بيت الله وبعض المواضع من المسجد الحرام في عام ٨١٤، وذلك لأن سطح كعبة الله المقدسة وكذلك أماكن كثيرة من المسجد الحرام آلت إلى الخراب.

ولما لم يعمر سطح بيت الله الحرام منذ (١٥٣) عاما لحق به الخراب إلى حد بعيد، وبهطول الأمطار أخذت المياه تنفذ داخل الكعبة من بعض مواضع السطح؛ لذا أصبح لزاما أن تمتد يد الإصلاح والتعمير إلى معظم مواضع الحرم الشريف، واقتضى الأمر إلى معاينة سطح الكعبة والمواضع التي ينبغي إصلاحها في المسجد الحرام فتم الترميم والإصلاح على الوجه المطلوب.

وبعد مرور سنة على ذلك الترميم تعرضت المدينة المقدسة إلى القحط واكتوت بناره، وقد وصل ثمن حمل بعير متوسط من الغلة إلى عشرين قطعة ذهبية، وبيع البطيخ الواحدة بقطعة ذهبية وذلك في سنة (٨١٥).

عجيبة:

حدث في أواخر شهر ذي الحجة أن حمل أحد الجمالين الذي عرف بتحميل جمله حملا فوق طاقته والذي كان يلقب بـ «القارونى» أراد الجمل أن يتخلص من ظلم صاحبه، وبطريقة ما دخل إلى المسجد الحرام وأخذ يدور ويطوف ببيت الله[1] وقد طاف حول كعبة الله المعظمة إحدى وعشرين مرة، ومسح وجهه

(١) كان هذا الحيوان يسكب دموعا من عينيه كقطرات المطر في أثناء طوافه، وفي موسم الحج من سنة ١٢٩٩ حدث مثل هذا الحادث في المدينة المنورة إذ دخل جمل شبيه بالجمل السابق صباح يوم إلى المسجد النبوي السعيد ومسح وجهه في باب السلام وبرك، ولم يقم حتى دفع ثمنه لصاحبه ودفع رجال الحكومة ثمنه لصاحبه ثم أرسل إلى حظيرة الدولة وعاش هناك إلى أن مات دون أن يستخدم في عمل. يروى أن صاحبه كان يؤذيه بشدة وكان يتركه جائعا.

بالحجر الأسود ثم وقف أمام المقام الحنفي أي حذاء الميزاب الذهبي فترة ما، ثم برك على الأرض وأسلم روحه وهو يسكب دموعا مثل حبات الحمص.

قد أثار الحدث عجب الناس وحدتهم، وشد انتباههم ثم رفعت جثة الجمل ودفن في مكان في شارع المروتين أي في محل وسط المسعى الشريف وذلك في سنة (٨١٥)، وبعد وقوع هذه العجيبة بعام واحد ابتاع الشريف حسن ابن عجلان ساحة المستشفى التي أقامها المستنصر بالله الكائن في جهة الشمال من جدار المسجد الحرام، ثم جدد المستشفى وأوقفه على علاج المرضى الفقراء، كما أصلح وجدد كمر بابين أوشكا على السقوط في الجهة الجنوبية من جدار الحرم الشريف في سنة (٨١٦)، كما أن الملك المؤيد زين ألواح مصراعي باب كعبة الله بأن طلاها بالذهب في خلال تلك السنة أى (٨١٦).

زيادة:

قد انهدمت المستشفى التي جددها الشريف عجلان بعد (١١٠) سنة، واشترى السلطان سليمان خان من سلاطين العثمانيين ساحة المستشفى المذكور وخرائب تكايا أحمد كجراوي من سلاطين الهند والشيخ طاهر وكذلك المنازل المتصلة بها، وبنى أربع مدارس كبيرة لعلماء المذاهب الأربعة وجعلها وقفا. إن هذه المدارس الأربعة مازالت قائمة إلى يومنا هذا وعامرة كما سيأتي ذكرها فيما بعد.

قد اتخذ جلبي سلطان بن سلطان يلديرم بايزيد خان ـ عليهما الرحمة والرضوان ـ إرسال صرة[1] إلى أهالى الحرمين الشريفين من ريع أوقافه الخاصة، كما اقتفى نجله النجيب السلطان مراد خان آثار أبيه ـ جعل الله مثواه الجنة ـ فأرسل إلى أهالي الحرمين ما مقداره (٣,٥٠٠) من الذهب الفيلوري واتخذت هذه العادة حكم القانون في سنة ٨١٧، وترسل كل سنة، كما أرسل السلطان مراد الثاني في سنة (٨٥٥) لجميع أهالي الحرمين (٨٠١) كيس من النقود.

(١) ولم تكن البلاد العربية قد ضمت إلى الدولة العثمانية بعد، وبما أن هذه الصرة كانت تبعث من بلاد الروم أطلق أهل الحرمين على صرة السلطان المشار إليه (الصدقة الرومية).

وقبل عامين من هذا كان الملك المؤيد قد طلا باب كعبة الله بالذهب وزخرفه، كما أرسل منبرا ثمينا وسلما جديدا، وضع السلم في داخل كعبة الله للصعود إلى سطح البيت، كما وضع المنبر في مكانه الخاص في سنة (٨١٨).

وبعد أربعة أعوام من هذا انهارت مظلة[١] المذهب الشافعي، أي قبة زمزم فجأة وأصبحت قطعا وخرابا ولكنها جددت فأصبحت بناء محكما بديعا رائعا في عام ٨٢٢هـ، وفي نفس العام طهرت ووسعت أحواض ماء زمزم وعين بازان التي خربت من السيل، كما نظفت وعمقت قنواتها ومجاريها التي امتلأت بالطين والتراب في سنة (٨٢٣). إن السطح الشريف لبيت الله الذي كان قد رمم وأصلح قبل أربعة عشر عامًا قد جدد مرة أخرى، كما أصلحت الأماكن المحتاجة للإصلاح من المسجد الحرام، فبدلت قطع الرخام التي كانت مفروشة في داخل بيت الله بأخرى جديدة. وبدلت الصفائح التي كانت على طلاء جدران الكعبة الداخلية ثم أعيد كل شيء إلى مكانه بعد تغيير ما لزم تغييره وإصلاح ما أمكن إصلاحه. وأراد السلطان برسباي سلطان مصر تغيير زخارف الأعمدة الداخلية لكعبة الله، وعرض الأمر على والي مكة وبتوجيه من أمانة الأبنية المقدسة أرسل إلى الحجاز ذات المناقب السنية الأمير (مقبل) في سنة ٨٢٤ هـ. وصل الأمير مقبل في أوائل السنة المذكورة إلى مكة المكرمة، وابتدر في أداء مهمته بعون مادي ومعنوي من قبل والي مكة، فرمم وأصلح الأماكن المحتاجة للتعمير والترميم من الحرم ثم هم وأصلح سطح بيت الله على الوجه المطلوب، واقتلع قطع الرخام التي تغطي أرضية كعبة الله كما اقتلع الصفائح التي تغطي جدران كعبة الله، فبدل قديمها وأصلح ما يمكن إصلاحه ثم وضع كل شيء في مكانه، وهكذا جدد من هيئة بيت الله القديمة فأعاد له رونقه وجماله.

وبعد أن زخرف الأمير مقبل الأعمدة التي في داخل كعبة الله وجدد قطع

(١) كانت هذه المظلة فوق باب زمزم وفي عام ٧٠٢ هـ، أمر ملك مصر بتسقيف المظلة حتى تصلح لجلوس المؤذنين وأداء مهمتهم.

الرخام التي في داخل الحطيم الكريم وخارجه أصلح وجدد كمر باب الجنائز وكان يطلق على باب الجنائز قديما (باب العباس) ولما أصبح إدخال توابيت الموتى من هذا الباب عادة أهل البلد أطلق عليه (باب الجنائز). إن أهالي الحرمين كانوا يدخلون جنازاتهم أولا في الحرم الشريف حيث يصلى عليها ثم يدفنونها في مقابرهم.

إن التوابيت التي يستخدمها أهل مكة المشرفة لا تشبه التوابيت المستخدمة عندنا فإنها قطعة خشب مستطيلة مثل الطوق وهي عادة باقية من عهد الجاهلية بناء علي اعترافهم، وتغطي جثة الميت الذكر بقطعة قماش مستوية بينما تُغَطَّى جنازة الأنثى بقطعة قماش مقوسة.

وأخيرا جدد عدة عقد في الطرف الشمالى من المسجد الحرام، ثم جدد مداخل باب العباس وباب علي، كما جدد مدخل (باب الصفا) الأوسط ومواقع (باب العجلة) و (باب الندوة الزائد) وأضاف إلى (باب الزيادة) ثلاثة كمرات.

ثم رفع الأعمدة التي تحمل هذه العقد، وأصلح ما يجب إصلاحه من الأبواب الأخري، وغير الستارة الحمراء التي في داخل الكعبة، ثم ألصق وعلق اللوحات الرخامية المزخرفة والتي أمر السلطان برسباي بتذهيبها وترتيبها على جدران كعبة الله الداخلية، وأنهى مهمته في صفر الخير من سنة ٨٢٥، وعاد إلى مصر و قد جدد السلطان برسباي بواسطة الأمير مقبل قطع الرخام التي في داخل بيت الله كما بدل وجدد طلاء جدران بيت الله الداخلية كما عمر باب الجنائز.

كما أنه أنعم وأحسن إلى الحجاج الذين حجوا بالقافلة المصرية إحسانا جما، وكان يبعث من المحمل المصري مظلات يقيمها حيث يبيت الناس ليظلل عليهم، ويروى أن هذا الشخص كان يأمر بذبح كثير من الأغنام وتوزيع لحمها مع الخبز والبقسماط على الحجاج.

وبعد عودة الأمير مقبل بسنة بعث الملك المظفر من ملوك اليمن المنقرضة مبلغا من المال مع رسوله الخاص، ورجا أن يعمر ويصلح ما يقتضي الأمر إصلاحه من مواقع الحرم الشريف. واتصل الرسول بوالي مكة المعظمة واستصدر إذنا من الحكومة المصرية بواسطة الوالي للقيام بمهمته، ولما كان سطح كعبة الله في حاجة إلى التعمير والإصلاح؛ فعمر قطع رخام السطح وأصلحها ثم سجل ما قام به على لوحة رخامية وألصقها على الجدار الغربي للكعبة المعظمة في سنة ٨٢٦.

وظلت كعبة الله والمسجد الحرام على حالهما بعد إصلاح الأمير مقبل ثمانية عشر عاما ولم يظهر فيهما ما يوجب إصلاحهما شرعا؛ إلا أن الحال لم يستمر طويلا بعد ذلك واحتاجت بعض أماكن البقعة المقدسة للتعمير بل وصل هذا إلى درجة الوجوب، فأرسل الملك جاقمق العلائي من ملوك الشراكسة في مصر الأمير سودون محمد من أمراء مصر لتعمير قطع الرخام التي فوق سطح كعبة الله وما يقتضي الأمر تعميره من الحرم الشريف وذلك في سنة (٨٤٣) ولما وصل (سودون محمد) إلى مكة المعظمة بدل رخام سطح الكعبة الشريف كما غير الألواح الخشبية التي لم تعد صالحة في السقف العالي لكعبة الله، ثم عمر وشيد المآذن التي آلت للسقوط، ثم خلع كسوة الكعبة الشريفة ووضعها في داخل البيت الحرام. ثم أصلح وسوى الجدران الخارجية لبيت الله بطريقة جيدة خلال يومين، وجدد قطع رخام الحطيم الكريم كما جدد باب المعلى لكعبة الله وجميع الأماكن المحتاجة للتعمير من الحرم الشريف السقوف والرفوف، ثم عمر قباب مقام إبراهيم والمقام الحنفي وباب زيادة إبراهيم وطهرها، وركب في المحل الكائن في شارع المسعى الشريف والملاصق لدار العباس وفي مقابل بازان ميلين أخضرين ومع هذين الميلين علق فوق كمري الصفا والمروة قنديلين، وبهذا أنار شارع المسعى الشريف وزينه ثم عمر ورمم جميع المساجد النبوية التي في طريق عرفات الذي يبدأ من مقبرة المعلا وينتهي عند جبل الرحمة، وطهر طريق عرفات بأن قطع الأشجار والأشواك التي في حذاء طريق المأزمين؛ وهكذا أنقذ الحجاج

المسلمين من هجمات أشقياء العربان وتسلطهم.

كان المعتصم بالله البغدادى أمر بأن توقد مشاعل في قوافل عرفات لإنقاذ الحجاج من هجمات الأشقياء ولحمايتهم وذلك في سنة (٢١٩) وإلى ذلك الوقت كانت الوسيلة للإنارة هي إشعال شمعة على سنام الجمل. كما أمر سودون محمد بقطع الأشجار البرية والكلأ الشائك والنباتات البرية التى كانت كثيفة وعالية لدرجة أنها كانت تقطع أقمشة السرج التي صنعت لجلوس الحجاج فوق ظهر الجمال، كما كانت مكمنًا للصوص الذين كانوا يختفون في داخل هذه الأشجار ويفرقون قوافل الحجاج، وقد أنقذ سودون محمد الحجاج من القلق والاضطراب إذ قطع تلك الأشجار وحطم الحجارة، ووسع طريق المأزمين، وبعد فترة نمت الأشجار التي قطعها الأمير سودون محمد وارتفعت حتى تحولت إلى غابة فاتخذها أشقياء القبائل البدوية مكان اجتماع واحتشاد، وأخذوا يمدون أيديهم لسرقة أبناء السبيل والحجاج كما كان يحدث في العهود السابقة؛ لذلك أمر محافظ جدة المعمورة بأن تقطع تلك الأشجار وتحطم الصخور التي قد يكمن خلفها اللصوص ووسع طريق المأزمين أكثر من ذي قبل، ولهذا لم يترك للصوص مأوى يختبئون فيه وتوفي في سنة (٩٥٠).

التذييل

إن شغدف ـ كما هو معلوم لدى أهل المعرفة ـ مخترع للجلوس في داخله وهو ثلاثة أنواع:

النوع الأول: من الشغدف يطلق عليه هودج على وزن جوهر.

ويطلق على **النوع الثاني:** منه (مِحَفَّة) على وزن مِعَدَّة.

ويطلق على **النوع الثالث:** منه شُغْدف بضم الشين وسكون الغين، ولكن الأتراك حرفوا الكلمة فجعلوها شوطوف.

والصحيح أن يقال: الشغدف، وبما أن الهودج ذو قبة عالية ومغطى فهو خاص بالنساء، أما المحفة مثل الهودج إلا أنه مكشوف لذا فهو خاص بالرجال، أما الشغدف فهو مقعد خاص للرجال والنساء.

يصنع الهودج والمحفة من الخشب، ولكن الشغدف يصنعه النجار من خشب سمكه ربع قدم وله رجلان والمقعد الذى سيجلس عليه ينسج من قشر سعف النخيل كأنه كرسى، ويغطى فى شكل نصف قبة يشبه عربة الثيران وله غطاء من قماش القلاع أو من جلد أو بساط أو حصير. إن الشغدف وإن كان يصنع على الشكل الذى بيناه إلا أنه لا يمكن استخدامه إلا إذا أحكم ربط اثنين منهما فوق الجمل، ويغطيان ببساط أو قماش آخر ويحمل فيهما حاجان، بعد حمل الشغدفان على الجمل كما بينا وبالتصاق قبتيهما يأخذ شكل قبة المحفة المستوية، ويصعد إليه حينما يكون الجمل واقفا بواسطة سلم له أربع أو خمس درجات ويجلس فيه، إن الشغدف يستخدم فى طريق الحرمين كما أن الهودج والمحفة يستخدمان فى طرق مصر والشام. انتهى.

قد أسدى الملك جاقمق إلى الحرمين خدمات أخرى كثيرة وأصلح وأنشأ بركة المعلى التى مازالت قائمة فى خلال عام (٨٠٦) وقد خربت تلك البركة فيما بعد فأحيتها كريمة السلطان سليمان (مهرماه) عندما أرسل سودون محمد إلى مكة المكرمة لترميم المسجد الحرام وتعميره. أرسلت كسوة مزينة من قبل شاه الفرس شاهرخ إلى القاهرة لتكسى كعبة الله، وأرسلت تلك الكسوة فى نفس العام بالقافلة المصرية إلى مكة المكرمة، وعلقت فى عيد الأضحى داخل كعبة الله وذلك لاتفاق تم بين الملك جاقمق وشاه الفرس الملك شاهرخ، إن الأمير جاقمق أمير اصطبل الملك الأشرف المصرى عندما اعتلى عرش سلطنة مصر بضربة حظ كان قد أرسل أحد أمراء الشراكسة يسمى (جيج كيوفا) إلى هراة لعقد اتفاق مع شاه الفرس فى سنة ٨٤٢، وقد سر (شاهرخ) من هذا الاتفاق الذى تم بين الحكومتين العربية والفارسية أعظم سرور فأرسل تلك الكسوة الشريفة لتعلق على الكعبة ليظهر شكره، كما استجلب الدعوات بإرسال الصرر لسكان الحرمين فى سنة (٨٤٣).

كانت قلة سبل الماء فى داخل مدينة مكة المكرمة تسبب كثيرا من الضيق والمشقة عندما كانت المدينة تزدحم بالحجاج فى موسم الحج، وكان أولو الأمر يتعرضون لكثير من المشاق والتعب لدفع ما يحدث من الشرور لقلة المياه. وأراد ناظر الحرم الشريف الشيخ بيرام إنقاذ الحجاج من العطش لقلة المياه، وفى نفس الوقت أراد أن يوفر المياه فى مكة المكرمة فأنشأ سبيلا فى حى المعلى وعدة أحواض متينة فى ساحة عرفات وملأها بالمياه، فروى عطاش المؤمنين فى سنة (٨٥٣) ومع مرور الوقت خرب السبيل والأحواض التى أنشأها الشيخ بيرام، وابتلى الناس مرة أخرى وقوافل الحجاج بالعطش فقامت (مهروماه سلطان) زوجة فاتح اليمن رستم باشا بإنفاق أموال طائلة، وعمرت ذلك السبيل والأحواض المذكورة سنة (٩٦٧) كما أنشأت كثيرا من السبل فى داخل مكة المكرمة فأراحت سكان بلدة الله كما سبق ذكره فى صورة إحياء عين زبيدة بالتفصيل، وبعد سنتين من إتمام إنشاء الحوض المذكور أصلح الشيخ بيرام ورمم بعض الأماكن، فأصلح ونظف بعد ذلك بأربع سنوات بناء على الأمر الذى تلقاه من الحكومة المصرية الأحواض التى فى ساحة عرفات والتى امتلأت بالطين والتراب، كما طهر مجرى عين حنين وعمر مسجد[١] نمرة ومسجد الخيف المباركين، كما أصلح سلسلة عقود السبعة أروقة التى آلت للسقوط والكائنة فى الجهة الشمالية من المسجد الحرام وجدار المسجد الحرام وفى الجهة الشرقية مقابل تكية السلطان قايتباى، وجدد دور خلوة الشيخ عفيف الدين بن أسد اليافعى والشيخ جمال الدين محمد بن إبراهيم المرشد بعد أن بدل شبكاتها فى سنة (٨٥٦)، وقد أرسل الملك الظاهر بعد تسعة أعوام كسوة مزينة غالية، وقد صنعت أطرافها التى تقابل الجهة الشرقية والشمالية من بيت الله الحرام من الحرير الأبيض، وزخرفت كل جهاتها بالخيوط الذهبية وعلقت على الكعبة يوم وصولها فى سنة (٨٦٥).

(١) نمرة اسم مكان فى عرفات أو اسم جبل الأميال الحديدية التى تحدد حدود الحرم فوق هذا الجبل، ويقع على يمين طريق المتوجهين من المأزمين إلى عرفات والمسجد اللطيف الذى يطلق عليه مسجد النمرة يقع فى هذا الموضع، ويقيم الحجاج صلواتهم فى هذا المسجد فى أيام عرفة.

وكان المشار إليه قد أرسل بعد ثلاث سنوات سلما ظريفا للصعود على سطح الكعبة الشريف، وما أن وصل السلم المذكور إلى مكة المعظمة حتى حضر أشراف البلاد والوجهاء وجميع موظفى الدولة ليكونوا فى شرف استقباله بكل تعظيم وتقدير، ووضع فى مكانه وذلك عام (٨٦٨).

بعد مرور أربع سنوات خلع السلطان (قايتباى) سلطان مصر على أمير مكة (محمد بن بركات بن أحمد بن عجلان) وسائر الأشراف والأعيان خلعا فاخرة، كما بعث إليهم بمال كثير ليقتسموه فيما بينهم كما أرسل رسالة بمنع الظلم والعدوان، وأمر بكتابتها على الأعمدة المواجهة لباب السلام، وأصدر الأمر بتعمير وإصلاح مساجد النبى ﷺ، وجميع الأماكن المقدسة وكذلك أمر بتطهير مجرى (عين عرفات) وذلك عام (٨٧٢).

وبعد مرور عامين أصلح مسجد الخيف ومسجد نمرة والمسجد الحرام وجميع العيون والآبار وبرك عرفات وذلك فى عام (٨٧٤). وبعد خمسة أعوام أرسل إلى المسجد الحرام منبرا فى غاية الروعة مزينا بالذهب الخالص وذلك فى عام (٨٧٩).

وبعد عامين أمر بإصلاح السقوف داخل باب السلام وحجر إسماعيل ورخام المسعى الشريف، وكذلك ما فى داخل بيت الله الشريف من الرخام كما أصلح مئذنة باب النبى ﷺ وعمرها وذلك فى سنة (٨٨١)، وأمر بكتابة بيان بذلك على لوحة من رخام وألصقها فى موضع داخل الحرم الشريف، كما أنه اشترى قطعة من الأرض المتصلة بالحرم الشريف وأنشأ عليها أربع مدارس وتكية وذلك فى سنة (٨٨٢). وقد استغرق إكمال ما ينقص تلك المبانى سنتين وبعد إتمامها أسكن فيها من يقتضى الأمر إسكانهم، بعد ما انتهى السلطان قايتباى من بناء تلك المدارس والرباط بعث إلى إمارة مكة المعظمة الجليلة يقول «رأيت حادثة فى رؤياى وجعلت العلماء يفسرونها، فقالوا: «يجب غسل داخل الكعبة وخارجها وعندما يصل رسولى يجب أن تنظفوا خارج البيت الحرام وداخله، وأن تطهروه» وذلك فى عام (٨٨٤).

وتلا على شريف مكة وأشراف بلد الله وأعيانه مرسوم السلطان قايتباى وبادر

إلى تنفيذ ما جاء فيه من أمر فغسل كعبة الله خارجها وداخلها إلى ارتفاع قامة إنسان، وطهر ونظف المطاف الشريف وسائر مواضع الحرم، وأرسل إلى السلطان قايتباى يخبره بما تم، وعقد السلطان نيته على أداء فريضة الحج فى نفس العام الذى تم فيه تطهير الكعبة الشريفة بأمره. وسافر إلى مكة المكرمة وتجرأ على أن يدخل الحرم من «باب السلام» وهو ممتط جواده ولكن ذل حافر الفرس فسقطت عمته عن رأسه وبقى حاسرا؛ إذ يجب على الداخل إلى الحرم محرما أن يكون مكشوف الرأس للقيام بالطواف والنسك، إنما تلك الجسارة كانت لملوك الشراكسة أمارة البله وضعف الإدراك، فالشراكسة المصريون كانت لهم بزة خاصة وهندام غريب يثير ضحك من يقع نظره عليهم لأول مرة.

ألبسة ملوك الشراكسة المصريين الرسمية:

إن السلاطين الشراكسة الذين تربعوا على عرش مصر اختاروا لأنفسهم ثيابا رسمية تشبه ملابس الأيوبيين، إلا أنهم أضافوا بعض الأشياء الخاصة بهم مما جعل لهم هيئة مثيرة للضحك، وإن ما جرت به العادة فى بلد من البلاد وما اتخذ من الأصول والقواعد ليس غريبًا أن يثير الضحك والسخرية فى بلاد أخرى.

وكان الملوك الشراكسة يتعممون بعمائم غاية فى الطول، ويثبتون على هذه العمائم ستة قرون مدببة؛ إلا أنها كانت مصنوعة من بز رقيق فى شكل مدبب، وجرت العادة فى الاستقبالات الرسمية أن تحمل فوق رءوسهم مظلات على هيئة الخيام، وعلى هذه المظلات صورة طائر باسط جناحيه[1]، وكان حامل هذه المظلة أعلى الأمراء المصريين رتبة ويسمى بولى العهد، وكان فى مصر فى هذه الحقبة من الزمن أربعة وعشرين وزيرا يلقب الواحد منهم بالأمير الكبير، وكانت

(١) وإن كانت المظلة التى ترفع فوق رأس أمير مكة وهو غاد ورائح إلى عرفات مظلة كبيرة نوعا ما؛ إلا أنها كانت خالية من صورة طائر، وهذه المظلة مصنوعة من قماش أخضر ومزخرفة بخيوط ذهبية وذات زر من الخيوط الذهبية. وكانت فى غاية الزخرفة والزينة والزركشة وكانت خاصة بأمير مكة فقط.

الموسيقى تعزف على أبوابهم صباحا ومساء، وكان كل واحد منهم يعمم بعمامة عليها أربعة قرون، أما من لم يحوزوا رتبة الأمير الكبير من الأمراء فكانوا يعممون بعمامة بها قرنان، أما من هم دونهم فى الرتبة فكانت عمائمهم خالية من القرون وطرفها مدلى إلى حناجرهم أما رؤساء الجنود فكانوا يضعون على رءوسهم قلنسوة من الجوخ الأحمر ويسايرون ركاب السلطان على أرجلهم، وعلى هذا الطراز وهذه الهيئة كانت الثياب الرسمية لملوك الشراكسة فى مصر، فمن كان منهم ذا رتبة لبس العمائم ذات القرون وكانوا يستنكفون من عمائمهم. كما يستنكفون من لبس ملابس الإحرام متجردين من ثيابهم ويعتبرونه من الأمور المعيبة لذا لم يستطع السلطان أن يحمل نفسه على الترجل ولبس ملابس الإحرام. انتهى.

وقد أقام السلطان الغورى من ملوك الشراكسة فى مصر فوق باب إبراهيم (كمرا) عقدا فى غاية الزينة فريدًا من نوعه وبنى قصرا وعلى جانبيه عدة مساكن، وأوصل بها عدة منازل وجعلها وقفا وذلك فى عام (٨٨٨) وبما أنها كانت أعلى من الحرم الشريف فقد أفتى أكثر العلماء بعدم جواز وقفها. يقيم الآن فى هذا القصر والمساكن التى بجانبه المستأجرون كما أن الحجاج يستأجرونها أحيانا. وأصلح السلطان الغورى المضايق التى فى طريق مصر كما رمم حجر إسماعيل الشريف كما أنه بنى سور جدة.

إرسال الصرة إلى الحرمين:

جرت عادة السلطان الغازى بايزيد خان الثانى بن السلطان محمد الفاتح خان بأن يرسل كل سنة صرة تحتوى على أربعة عشر ألف قطعة ذهبية، على أن يوزع نصف المبلغ لعلماء مكة الأعلام والنصف الآخر لعلماء المدينة الأعلام وذلك فى سنة (٨٨٦)، وبما أن سماحة خلق المشار إليه قد ذاعت بين أهالى الحرمين فقد نظم شاعر من شعراء المدينة يسمى أحمد بن حسين العليف قصيدة مدح وثناء ضمنها مناقب الخليفة المختارة وقدمها للسلطان.

إن الشاعر المذكور هو الشيخ شهاب الدين أحمد بن حسين العليف، وكان أحسن الناس فى زمانه وقد شرف دار السيادة بزيارته فى صحبة الشيخ محيى الدين بن عبد القادر بن عبد الرحمن العراقى من خطباء مكة المكرمة. إن القصيدة البليغة التى قدمها إلى السدة السلطانية كانت مؤلفا نفيسًا بعنوان «الدُّرُّ المنظوم فى مناقب السلطان بايزيد ملك الروم» وكان مطلع القصيدة البديعة هذا البيت البليغ:

خذوا من ثنايای موجب الحمد والشكر ومن در لفظی طيب النظم والنثر

فأمر السلطان سديد الرأى لهذا الشاعر جائزة بألف من الذهب جائزة وأوعده بإرسال صرة بمائة دينار كل سنة، وقد نال الشاعر المذكور إلى آخر عمره صرة بمائة دينار كل سنة.

كان الدينار فى تلك الأوقات نوع من عملة ذهبية وسنعرف فى موضوع الصرة الهمايونية مزيدا عن قيمة هذه العملة فى زماننا، ومتى ضربت وقطعت؟ ومما صحت روايته أن الذى خصص له الملك صرة فى كل عام هو أحمد بن العليف وكانت ترسل كذلك إلى أبنائه وأحفاده إلى انقطاع نسله.

قد احتاج قطع رخام الحطيم الكريم للتسوية والترميم، فما كان من أبى النصر الغورى إلا أن غيرها كلها، وفى نفس الوقت زخرف داخل الحطيم وخارجه وفرش أرضه وذلك فى عام (٩١٧)، وبعث السلطان سليم بن السلطان بايزيد خان إلى أهالى الحرمين الشريفين أضعاف ما كان يرسله والده كثيرا، وضم هذه المبالغ إلى العطايا المقررة لسكان الحرمين الذين يردون إلى دار السعادة، فكان ما يكفيهم وذلك فى سنة (١١٨) وفتح السلطان سليم بلاد مصر، وأدخل أهلها طاعته فخضعوا جميعا لأوامره وأدخل فى حوزته بلاد الحرمين الشريفين ونشر فيها أنوار العدل، وكان يعيش فى ذلك العهد فى مصر الخليفة المتوكل على الله[1] الثالث العباسى، ولم يكن له من أمر الخلافة إلا شيئًا معنويًا وهو أن يؤخذ إذنه

(١) كان اسم المشار إليه عبد الرحيم، وعلى رواية محمد بن المستمسك بالله يعقوب وقد بعثه السلطان سليم مع أولاده وأهله وأتباعه إلى دار السعادة.

عندما يتبادل الأمراء منصب السلطنة، وكان يمضى أيامه بإدارة وقف السيدة نفيسة[1] وقد تنازل عن الخلافة للسلطان سليم ودخل تحت حمايته.

وقد أرسل الشريف سيد بركات الذى كان حاكم الحرمين فى ذلك الوقت أبا عن جد ولكنه كان تابعا لملوك مصر الشراكسة ابنه أبا نمى الذى كان فى الثالثة عشرة من عمره إلى مصر، ومعه المخلفات النبوية المباركة مع مفتاح بيت الله وسلم كل هذه الأشياء إلى السلطان سليم مصدقا بخلافته ومبايعا له، وقدم له بعض الهدايا الحجازية مباركا بالخلافة وذلك فى سنة ٩١٣.

وقد اشتكى السيد بركات فى الشكوى التى قدمها إلى السلطان سليم من جور وظلم والى جدة الأمير حسين الكردى للأشراف الكرام، فأكرم السلطان الشريف أبا نمى إكراما بالغا، وخلع على والده سيد بركات وعليه خلعة غالية الثمن لكل واحد منهما ورد إليهما اعتبارهما ومكانتهما ووقرهما، ثم أعاده إلى مكة المكرمة وفى اليوم الذى كان سيدخل فيه الشريف أبو نمى إلى مكة زين أهلها الأزقة والأسواق واحتفلوا عظيم الاحتفال، ولبس السيد بركات وابنه الخلع السلطانية التى أنعم بها السلطان وجلسا فى المقام الحنفى بعد أن طافا بالبيت، حيث وفد الناس يزفون التهانى وعلى أثر تلقى التهانى استقدم الأمير حسين الكردى وأبلغه الأمر السلطانى بشأنه، وأركبه زورقا مضى به تجاه السويس ولكنه ألقى به فى البحر وغرق فى مكان يسمى بيت العجين.

لازمة:

إننا لم نستطع أن نحصل على كتاب تاريخ يبين لنا ما قدمه الشريف أبو نمى إلى السلطان سليم بن بايزيد خان من المخلفات المقدسة المباركة: نوعها وعددها إلا أن هذه المقدسات المباركة توجد ضمن الأشياء المباركة الجميلة التى تحتوى عليها حجرة الأمانات الشريفة الفاخرة، وقد قدم بعض هذه المقدسات المباركة من قبل الأمير المشار إليه ثم حصل على البعض الآخر فيما بعد.

(١) سواء أكانت المشار إليها أو كانت السيدة زينب والسيدة رقية والسيدة سكينة فمقابرهن فى مصر. وكانت السيدة زينب والسيدة رقية أختى الإمام الحسين لأبوين، والسيدة سكينة كانت بنته من رباب بنت امرئ القيس بن عدى الكلبى.

التى تحتوى عليها غرفة الأمانات الشريفة
نوعها وعددها

رباعية النبى ﷺ، الحجر الشريف الذى يحمل أثر القدم الشريفة للنبى ﷺ، فرد واحد[١] للنعلين الشريفين، الخرقة النبوية الشريفة[٢]، سجادة الرسول ﷺ، سجادة الصديق، لواء النبى ﷺ[٣]، قبضة سيف النبى ﷺ، قوس النبى ﷺ، عدد ٢ عصا النبى ﷺ[٤]، قدر حضرة نوح عليه السلام، مرجل إبراهيم عليه السلام، قميص يوسف عليه السلام الملطخ بالدماء، رأس زكريا عليه السلام، قبضة سيف داود عليه السلام، قميص سيد الشهداء الملطخ بالدماء، قميص فخر النساء، ألوية الخلفاء الأربعة، عمائم الخلفاء الأربعة، سبح الخلفاء الأربعة، سيوف الخلفاء الأربعة، قبضة سيوف العشرة المبشرين وهى ست، السيف الصارم لجعفر الطيار، قبضة سيف خالد بن الوليد، قبضة سيف معاذ بن جبل، سيف شر حبيل بن حسنة، سيف أبى طلحة، لواءان للإمامين، تاج أويس القرنى،

(١) قد حصل على الفرد الآخر فى عهد السلطان عبد العزيز.

(٢) إن هذه الخرقة الشريفة هى التى أهداها النبى ﷺ لكعب بن زهير رضى الله عنه من أصحاب النبى ﷺ وكان الأصحاب الكرام يزورون هذه الخرقة متبركين وكانوا يغمرون جزءا منها فى الماء ثم يشربونه للاستشفاء. وبناء على تدقيق (على القارى) احتفظ بها ورثة زهير واشتراها منهم معاوية رضى الله عنهم، وبعد انقراض الدولة الأموية انتقلت إلى السلاطين المصريين ومنهم إلى السلطان سليم.

وكان سلاطين آل عثمان فى أول الأمر يزورونها فى يوم معين ويغمرون أطرافها فى مرجل مليئ بالماء ثم يملئون هذا الماء فى الزجاجات ويجمعونها ويقدمونها لرجال الدولة، والذى ينال زجاجة من هذا الماء كانوا يعظمونه ويتبرك به مثل ماء زمزم ثم يصوم ويفطر به طلبا للشفاء.

(٣) كان اللواء الشريف فى عهدة سلاطين مصر، وتحفظ فى خزانة حكومة الشام ولما فتح السلطان سليم بلاد العرب أمر بحفظه فى الموضع الذى شهده فيه، إلا أنه كان يؤتى به فى معظم الحروب على أنه رمز النصر ومظهره؛ لذا أحضره السلطان مراد الثالث إلى الأستانة وظل فيها قرنا من الزمن فى غرفة الخرقة الشريفة.

(٤) إحدى هاتين العصوين كانت عصا النبى شعيب عليه السلام.

مصحف عثمان بن عفان، الكلام القديم بخط الإمام الليلى، المصحف الشريف بخط زين العابدين، مفتاح البيت الأعظم، الميزاب الذهبى، مصراع باب التوبة، الغطاء الفضى لمقام إبراهيم، الطين، ماء الغسل النبوى.

إن الأمانات والمقدسات المباركة كل واحدة منها فى داخل غلاف فضى، أما الخرقة الشريفة فى داخل صندوق فضى صغير وهى فى غرفة العرش، أما الأمانات الأخرى فقد وضعت فى رفوف جدران تلك الحجرة بكل عناية.

التذييل:

إن الميزاب الذهبى القديم بدل سنة (١٥٢٢) و (الكوكب الدرى) الذى اكتسب شرفا بمجاورته الغرفة المعطرة فترة طويلة والأخشاب القديمة التى اقتلعت من أماكنها عند تعمير سطح كعبة الله التى صنعت هدية نفيسة للسلطان بايزيد خان كل هذه الأشياء حفظت فى الأماكن الخاصة التى فى حجرة العرش.

ولما سافر قبودان الغازى حسين باشا إلى مصر بمهمة القضاء على ثورة القاهرة عرف أنه فى ضريح السلطان الغورى مخلفات نبوية مباركة وهى قطعة قميص وعصا شريفة ومرودا، وفى خلال شهر ربيع الأول من سنة (١٢٠٣) نقلت هذه المقدسات المباركة من مبنى محكمة مصر، وبادر بتطييبها وتعطيرها حين زيارتها، ووضعها فى داخل صرة ووضع الصرة فوق كرسى مزخرف وأعادها إلى مكانها فى موكب خاص اشترك فيه علماء مصر كافة، وحملت هذه الآثار على الرءوس بكل تعظيم وصلاة وسلام، ووضعت فى صندوقها الخاص فى مكانها القديم.

وقد سطر جودت باشا فى تاريخه أن الأشياء المذكورة مازالت محفوظة فى ضريح السلطان الغورى إلى الآن يستطيع أن يزورها من أراد ذلك، وقد سر السلطان سليم سرورا بالغا بحصوله على الأمانات النبوية المقدسة المبروكة لذا راعى جانب الشريف محمد أبا نمى مراعاة عظيمة وطيب خاطره بإلباسه الخلع، كما بعث إلى والده الشريف أبى البركات هدايا كثيرة وأكرم أهل الحرمين الشريفين كما ينبغى، وكل هذا لحصوله على الأمانات النبوية. وفى خطبة عرفة

(٩٢٣) ذكر اسمه كخليفة وبلغ الأمر إلى جميع سكان الحجاز وتهامة، وأراد السلطان العظيم أن يبين شكره على ذكر اسمه فى خطبة عرفات فأرسل إلى أهالى الحرمين مائتى ألف قطعة ذهب فيلورى وقدرا كافيا من الحبوب المتنوعة، وأرسل الأمير مصلح الدين وفى رفقته قاضيان لتوزيع تلك العطايا، كما أعطى للرسول المذكور دفتر قد زخرف عاليه بكتاب ما أرسل إلى مولانا الشريف أبى نمى من خمسمائة قطعة ذهبية، وكان السلطان سليم اعتاد أن يرسل الصرة التى تحتوى على الذهب الفيلورى فى كل سنة، وأصدر أمره السلطانى بإرسال الصدقات المصرية[1] التى كان يبعثها ملوك الشراكسة كما جرى فى السابق على أن تتحمل الخزينة السلطانية العامرة نفقاتها، وجعل ذلك قواعد يجب اتباعها كل سنة.

وقد غمر الفرح نفوس أهل الحجاز لصنيع هذا السلطان، وعلى أثر ذلك أطلقوا على ما ترسله السلطنة السنية الصدقات الرومية للتفريق بينها وبين الصدقات المصرية.

* * *

(١) أعاد الشراكسة إرسال هذه الصرة تحت اسم (الذخيرة) وتوزيعها على العلماء المستحقين. كما رتب السلطان سليم خراج مصر وقسمه أقسامًا ثلاثة: فجعل من القسم الأول ماهية عشرين ألف عسكرى بالقطر من المشاة واثنى عشر ألفًا من الخيالة، والقسم الثانى يرسل إلى المدينة المنورة ومكة المشرفة، والقسم الثالث يرسل إلى خزينة الباب العالى.
انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٧٧، نقلاً عن الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك.

بيان كيفية توزيع وتقسيم الصُّرّة المرسلة من قبل السلطان سليم بن بايزيد

عندما وصل الأمير مصلح الدين إلى مكة المكرمة أخذ يوزع نقود الصدقة الرومية وفق ما سجل فى الدفتر الذى معه، وأوصى الذين نالوا العطايا أن يستمروا فى رفع أكفهم بالدعاء للسلطان ودوام عزه ثم جمع العلماء الأعلام والأعيان والأشراف الكرام الذين وردت أسماءُهم فى سجل العطايا، وجعلهم يختمون تلاوة القرآن الكريم ويوجهون إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ دعواتهم بإطالة عمر السلطان وزيادة قوته.

بعد ما أتم العلماء المجتمعين فى داخل الحطيم ختم القرآن الكريم اختار الأمير مصلح الدين ثلاثين من الحفاظ الصلحاء وكلفهم بختم القرآن الكريم مرة كل يوم بناء على التعليمات التى يحملها من السلطان، على أن يأخذ كل واحد منهم اثنى عشر قطعة ذهبية فى السنة، كما اختار بعض العلماء وكلفهم بقراءة البخارى والشفاء[1] الشريف على الدوام ثم استدعى الفقراء الذين يحتاجون إلى الصدقة فى الحقيقة وسجل أسماءهم فى السجل، وأعطى لكل واحد منهم ثلاث قطع ذهبية كعطية سلطانية، ثم ذكر بأن السلطان سيبعث كل سنة ثلاث صرر من الذهب، وأحصى أفراد أسر الفقهاء وسجلهم فى سجله، وقرر أن يعطى لكل فرد منهم ثلاثمائة قطعة ذهبية ثم قيد المبالغ اللازمة لهم باسم صرة البيوت. ثم جمع كل الذين أظهروا حاجتهم للعطية وأعطى لكل واحد منهم قطعة ذهبية، وأشار إليها فى سجله بالصرة العامة، وفى آخر شهر ذى الحجة جمع العلماء والصلحاء وأخذهم إلى جبل التنعيم وبعد لبسهم ملابس الإحرام جعلهم يعتمرون لوالدة السلطان، وأدرج ما أنفقه فى هذا السبيل فى سجل باسم صدقات العمرة،

(١) هو كتاب الشفاء فى التعريف بحقوق المصطفى ﷺ للقاضى عياض. أما صحيح البخارى فقد سماه البخارى ـ رحمه الله ـ «الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه».
انظر: هدى السارى لابن العسقلانى ص ١٠.

وفى أثناء إنهاء أداء العمرة وصلت إلى ميناء جدة السفن المصرية محملة بالمرتبات الحجازية من الحبوب والصدقات وتحمل كذلك أمرا سلطانيا للأمير سابق الذكر بكيفية توزيع الحبوب وتقسيمها، وقد تبين عند البحث والتحقيق أن الحبوب المذكورة: ألفا إردب منها لأهالى المدينة المنورة، وخمسة آلاف أردب منها لسكان مكة المكرمة، كانت كلها سبعة آلاف أردب من المؤونة والغلال.

الذيـــل

الأردب كيل خاص بالبلاد العربية ويستوعب ست ويبات، وعند اللغويين الويبة تساوى ستة أصواع، والصاع أربعة أمداد والمد يساوى رطلا وثلث رطل.

وبناء على هذا التعريف يقتضى أن يعدل الأردب ١٥٣ أوقية و ١٠٠ درهم؛ إلا أن استخدامات الأردب فى بلاد العرب تختلف فعند المصريين الأردب الواحد يساوى ١٢ ويبة، والويبة الواحدة[١] تساوى ست كيلات إستانبولية قديمة، وتعدل الويبة ١٠ أوقيات. وقالوا إن الأردب يساوى ١٢٠ أوقية، أما الحجازيون فيعتبرون الأردب و الأردب ١١ أوقية و ١٠٠ درهم[٢] أما أهل البلاد الأخرى فيختلفون فى تحديد مقدار الأردب اختلافا كبيرا كذلك يكاد أن يكون تقدير مقدار الأسلوب كثير الصعوبة إن لم يكن مستحيلا ونظراً لورود الغلال من مصر يجب اعتبار الأردب ١٢٠ أوقية، وقد سمع بأن تقى الدين باشا والي الحجاز الأسبق ساوى بين أوزان وأكيال البلاد الحجازية بالأوزان والأكيال التى تستخدم فى جميع البلاد التابعة للسلطة العثمانية، لكننا نظن أن تعميم هذه القاعدة فى البلاد الحجازية غير قابل للتطبيق.

الغلال الواردة

حتى لا يقع الخطأ فى تقسيم تلك الغلال وتوزيعها اتفق الأمير مصلح الدين مع الأشراف والأعيان على تعداد سكان مكة المكرمة، واستثنى منهم التجار ومتوسطى الحال والجند فوجد عدد المحتاجين من المسنين والشباب والأطفال

(١) عرف ابن فضل ـ أحد مؤرخى مصر ـ الويبة الواحدة بأنها ١٤ ربع، والربع الواحد أربعة أقداح، والقدح الواحد ٢٣٢ درهم.

(٢) الأردب الآن فى مكة يساوى ١٠٨ أوقية.

الذكور والإناث (١٢٠٠٠) نفر، وبناء على رأى السيد جمال الدين محمد بركات شريف مكة، استصوب توزيعها على المحتاجين المذكورين كل واحد منهم ربع أردب من الحنطة وقطعة ذهبية ثم أعطى مفتى المذاهب الأربعة لكل واحد منهم ثلاثة أرادب[١] غلة وهكذا أجرى قواعد العدالة.

أول ما وزع من الأرزاق التى أرسلها السلاطين العثمانيين على أهل الحرمين هى ما وزعه مصلح الدين أفندى من سبعة آلاف أردب من مختلف الغلال وقد زاد مقدار هذه الغلال من سنة لأخرى لحاجة الناس إليها حتى وصلت فى عهد السلطان محمود العادل إلى (١٧٠٠٠) أردب من الحنطة، وكان هذا القدر كافيا لتغطية حاجات الناس ومن هنا لهجت ألسنتهم بطول بقاء الدولة العثمانية. واستطاع فيما بعد ذوى الحيلة أن ينال كل واحد منهم مائتى أردب من الحنطة مدعين انتسابهم لجهة من الجهات؛ وبهذا تركوا كثيرًا من الفقراء لا ينالون، شيئا ولما استحال جلب هذه الغلال من مصر أخذ الناس يتقاضون من خزانة الدولة ثمن ما يستحقون من حنطة.

ترميم المقام الحنفى

كان الأمير مصلح الدين مكلفا أيضا بتعمير الحرم الشريف وترميمه ولما رأى أن المقام الحنفى فى شدة الحاجة إلى التعمير قال مخاطبا أعيان بلد الله وعظماءهم إن هذا المقام[٢] المبارك الذى أنشىء على أربعة أعمدة مسقفا بناء مبارك، ومحرابه فى وسطه، وقد بنى من أجل أئمة المذهب الحنفى الكرام كما تعرفون جميعا أنه بنى فى سنة (٨١١)، وفى سنة (٨٤٣) غطيت قبته بالقصدير من قبل السلطان المصرى جاقمق وبالنظر إلى شكله الحالى وكثرة الحجاج والضيوف الذين يفدون للحج قد تجاوز وجوب توسيعه مع إنشاء قبة له درجة الوجوب.

لذا يقتضى الأمر تهيئة مقام أوسع يستطيع الحجاج الذين على المذهب الحنفى

(١) هذه الأرادب التى أعطيت لرجال المذاهب الأربعة كانت زائدة عن حصتهم وإنما أعطيت لهم رعاية لجانبهم وذلك مما سر الناس جميعا.

(٢) وهنا كان مصلح أفندى يشير بإصبعه إلى المقام الحنفى.

أداء صلواتهم عند حلول أوقات الصلاة دون أن يزعجوا جماعات المذاهب الأخرى فى أثناء صلاتهم مقتدين بإمامهم.

وبهذه المقدمة قد جعل ما فى ضميره من عزمه على توسيع المقام موضع الاستشارة والبحث؛ إلا أنه لم يستطع أن يحصل على الموافقة فى ذلك اليوم، وفى اليوم الثانى كون لجنة حتى يستطيع أن يبنى المقام المذكور وفقًا لخريطة أفكاره، وقد حصل على موافقة العامة على البناء، وفعلا بنى مقاما فخما وفق ما رسم خياله فى ذهنه من رسم مطبوع وشكل مرغوب، كما رفع فوقه قبة جديدة ثم عمر وأصلح ما يجب تعميره، وهكذا شيد وبنى الحرم الشريف على شكله ذاك فى أيامه وذلك فى سنة (٩٢٣).

قد دام المقام الشريف الذى شيده مصلح الدين أفندى فترة طويلة إلا أنه احتاج للتعمير والترميم بفعل الزمن لذا هدمه حاكم جدة (خوش كلدى) من أساسه، وبنى مكانه مقاما مربعا لايدانى فى الجمال من طابقين، وخصص الطابق الأعلى للمؤذنين والطابق الأسفل لجماعات الحنفية، وما زال ذلك المقام قائما بالطرز الذى بناه عليه (خوش كلدى بك) ولكنه وسع وجدد فى سنة (١٠١٧)، وأصلح وعمر فى سنة (٢٥٩) كما ذكر فى الصورة الثانية من الوجهة الخامسة.

عندما وفق (خوش كلدى بك) فى تجديد البناء العالى للمقام الحنفى فنظم غبارى أفندى تاريخا لطيفا.

قطعة

المقـــام الخـــاص بسلطـــان الأئمـــــة
إذا أصبـح معمـورا بمحامد ومحامـد
طاف بسمعى من العاكفين بكعبة الأنس
اســـمه هـــو (خـــير المســـاجـــــد)
إذا لـم يكـن هـــو خـــير المساجـــــد
فـلم يكـــن التاريـــخ خـــير المساجـــد

سنة ٩٤٩

بعد أن فرغ الأمير مصلح الدين من تعمير وترميم المقام الشريف وغيره من الأبنية مضى إلى المدينة المنورة وأخذ فى إحصاء عدد السكان ثم وزع ألفى أردب من الغلال السالفة الذكر على أربعة آلاف نسمة من السكان الذين قيدهم فى سجلاته عقب الإحصاء، وهكذا استجلب الدعوات الخيرة للسلطان العالى الشأن وذلك فى سنة (٩٢٣) وإن كان ما وزعه الأمير مصلح الدين من الغلال فى سنة (٩٢٣) كفى أهالى الحرمين الكرام فى ذلك الوقت إلا أن عدد سكان الحرمين زاد عاما بعد عام، وأصبحت المرتبات الحجازية لا تفى بحاجة الناس؛ لذا أوصل السلطان فى عام ٩٢٦ العطايا إلى حد الكفاية.

واعتاد أن يرسل المخصصات بواسطة مصلحة الصرة، وإلى الآن ترسل المخصصات بهذه الصورة وتوزع كل سنة على سكان مكة أمام البيت الشريف بحيث يعود الذين استلموا عطاياهم المخصوصة فرحين مسرورين داعين لسلطان الزمان العثمانى وأهله بطول بقاء دولتهم عليهم الرحمة والرضوان، قد سددوا ديونهم التى تراكمت خلال السنة الحالية.

إن ما يطلق عليه الصدقات الرومية من هذه المبالغ هى قوام حياة أهالى الحرمين الشريفين لم يكن يرسل على عهد الملوك القدامى سواء من قبل ملوك الشراكسة أو الخلفاء العباسيين أو أسلاف السلاطين العثمانيين على هذا النحو، ولم يوفق أحدهم إلى مثل ما بعث السلطان سليمان.

والصدقات التى كانت تخصص فى عهد السلطان سليمان، لأى واحد كانت تؤول إلى أولاده بعد مماته، وإذا كان المتوفى بدون وارث كانت هذه الصدقات تعطى لأحد الفقراء المحتاجين.

وكان فى مكة المكرمة مخازن خاصة لوضع وحفظ الغلال التى ترد تباعا، وعندما ترد تلك الغلال كانت تحفظ فى تلك المخازن، وكان فى بعض حجرات مدرسة الشريف عجلان بالقرب من باب العجلة أى فى داخل الحرم الشريف مصلحة فى مديرية الحرم الشريف وهى التى تعطى إيصالات الاستحقاقات

لأصحاب الشأن، وترسلهم إلى أمانة تلك المخازن فيأخذ كل واحد حقه وفق الإيصال الذى يحمله، وهذا النظام باق إلى يومنا هذا ومرعى الجانب.

مقدار وقيمة الصرة السنية المعتاد إرسالها إلى الحرمين

فى زماننا هذا كلما زاد سكان الحرمين وتكاثر المجاورون زاد ما تضمه الصرة السلطانية إلى أن وصل فى العصر السلطانى الذى نفتخر ببلوغه وإدراكه مقدار الصدقات إلى (٣٥٠٣٦١٣) قرش وإذا ما أضيف لهذا المبلغ (١٢٢٦٢٦٢) قرشا تنزيلا[١] بنسبة ٣٥٪ تصل قيمة الصرة السلطانية إلى (٤٧٢٠٨٧٧) قرشا وهذا يساوى على التقريب (٩٠٠٤٥٩) كيسا و ٣٧٧ قرشا[٢] وهذه المبالغ مع ما أضيف إليها هى لمكة المكرمة (١٠٧٤٨٨٦٠) قرش، ولأهالى المدينة المنورة (٢٤١٦٧٠٧١) قرش، و (١١٥٤٧) قرش للقدس الشريف ولمن فى طريق الحج والقائمين على صيانة أحواض الماء كما قدم إلى بعض وجهاء القوم شيلان صوف هدايا دائمة.

ولا ترسل الآن صرة الهدايا هذه وتقدم قيمتها نقدا إلى مستحقيها، وتبلغ صرة سكان مكة (١٠٧٤٨٦٥) قرش والمرتبات القديمة (٢٠٧٠٦٩) وأضيف إليها جديدا (٨٦٧٧٩٦) قرش. أما مخصصات المدينة وهى (٧٤٩٢٤٦) قرش فهى الصرة القديمة أضيف إليها مبلغ (١٦٦٧٤٥٥).

الصرة الخاصة بأهل مكة

القرش	نوع الوقف	محل الصرف
٧٢٣١٣	من خزينة الحرمين الشريفين	أهل مكة المكرمة قد منحوا ذلك قديما ثم آل بعد ذلك إلى أولادهم وأولاد أولادهم وأحفادهم وبعد انقطاع نسلهم تصرف إلى المستحقين من الفقراء.
٣٧٥٤٤	من خزينة الأوقاف السلطانية	
٣٣٢,٥	من وقف مجهول النظارة	

(١) قد حسب هذا التنزيل بالنسبة للمسكوكات المتداولة فى الحرمين.

(٢) والمبالغ التى تصرف فى أثناء ذهاب المحمل وعودته وما يعطى لمشايخ العرب فى طريق المحمل وهى تساوى ١٠٠٠ كيس من النقود وهى زيادة على أكياس النقود التى ذكرت.

القرش	نوع الوقف	محل الصرف
٣٢٣	من خزينة المالية	
٣٠٠	من خزينة الحرمين الشريفين	
٤٧١٥٣	من أموال حوالى الشام	
١٢٣٧٣,٥	من خزينة السلطان الخاصة	
١٧١٣٣٩	المجمـــوع	

القرش	نوع الوقف	محل الصرف
٦٥٤٦٦	من خزينة المالية	هذه المبالغ الرواتب السنوية وهى الصرة القديمة وما ضم إليها جديدا
١٧١٩٠٠	الصرة القديمة من الأوقاف المضبوطة	
٣٢١٩١	من خزينة المالية	وتصرف لموظفى الإدارة بالحرم الشريف والأئمة والخطباء ومسجد بيعة الرضوان والأشراف الكرام والآخرين والقائمين بخدمة الحرم المحترم
٨٢٠٩٠	الصرة القديمة من الأوقاف المشروطة	
٨١٢٧٠٧	المجمـــوع	

القرش	نوع الوقف	محل الصرف
٢٠٠٠	من وقف السلطان عبد المجيد خان	وتصرف لموظفى مكة المكرمة من أبناء مكتبة الحرم الشريف والذين يعينون أوقات الصلاة والذين يعنون بالساعات والذين يكبرون ومؤذنى الحرم الشريف والقائمين بتطهير بيوت الخلاء والإيجار منازل أمناء الكتب، ولبعض فقراء التكايا والمحتاجين والمجاورين ولمرتبات مستشفى الغرباء
١٢٢٠٠	كذلك	
٤٦٣٥	كذلك	
٤٥٦٠	كذلك	
١٦٦٨٠	كذلك	
٣٤٩٢	كذلك	
٦١٨٠	كذلك	
١٥٦٠٠	كذلك	
٧٢٠٠	كذلك	
٨٨٥٢٥٤	المجمـــوع	

القرش	نوع الوقف	محل الصرف
٨٨٥٢٥٤	المجموع السابق	رواتب الذين يتلون أجزاء من القرآن الكريم كل يوم عقب صلاة الفجر فى المقام الحنفى، وحارس ضريح السيدة ميمونة رضى الله عنها وكذلك
٣٦٠٠	من وقف السلطان محمد الثانى	
٣٨٤٠	من وقف سلطانى الوالدة بزم عالم	
٤٨٠	كذلك	

قرش	نوع الوقف	محل الصرف
٤٥٠٠	كذلك	مكبرى المقام الحنفى ومؤذنيه ومن يقدمون ماء زمزم فى موسم الحج وفراشى المسعى الشريف.
١٥٠٠	كذلك	
٩٦٠	كذلك	
٢١٠٠	كذلك	
٩٠٢٢٣٤	المجموع	
٢٤٩٦	من الأوقاف المشروطة	
١٢٤٨	بإيجاد مقابلة	
١٢٨٨١٣	تعويضًا من خزينة المالية	
٤٠٠٧٤	من خزينتى المالية والحرمين	
١٠٧٤٨٦٥	المجمـــــوع	

إن مجموع هذه المبالغ المذكورة فى ذلك الجدول (٥,٧٤٩٦٠) قرش و (٠٠٤,٧٩٦) قرش إضافات جديدة.

(٠٦٩,٠٧٠,١) قرش من الصرة القديمة، و (٣,٠٧٦,٣٣٩) ترسل أكياس مختومة، و (٣٧٤,٥٣٠) قرش تعطى بالحوالة من أموال الشام، ٣٩٩٦ قرش تحجز فى حجرة أوراق الحلى فى استانبول على أن تعطى لبعض الذوات.

ملحوظة:

جاءت فى جداول المؤلف كلمة (يوك) فى الأرقام وتساوى نصف مليون.

قرش	نوع الوقف	محل الصرف
١٤٨٥٠١,٥	من وقف الحرمين الشريفين	خصص لأهل المدينة المنورة قديما من الصرة السلطانية وآلت من الآباء إلى الأبناء والأحفاد وبعد انقطاع نسلهم صرفت إلى الفقراء.
٤٣١٠٨	من خزينة الأوقاف السلطانية	
٤٢٠٧,٥	من وقف مجهول النظارة	
٨٨٦	من خزينة المالية	
١٧٦٤٨	من خزينة السلطان الخاصة	
١٠٦٨٥٢	من المالية تعويضا عن الحوالة الشاملة	
١٣٢١٢٠٣	المجمـــــوع	

قرش	نوع الوقف	محل الصرف
١٦٨٠٠٠	من الأوقاف المضبوطة	من الزيادات القديمة والجديدة مخصصة لإدارة مديرية الحرم النبوى وشيخ الحرم النبوى وموظفى دفتر اليومية للخزينة النبوية وتؤخذ من أوقاف الحرمين فى بغداد والبصرة
٩٩٩٠٠	من خزينة المالية	
٩٢٨٨٠	من خزينة الأوقاف السلطانية	
٦٨١٩٨٣	المجمـــــوع	

قرش	نوع الوقف	محل الصرف
٥٤٩٦٠٠	من خزينتى المالية والأوقاف	خصصت رواتب سنوية من الأوقاف المخصوصة لخدمة الحرم الشريف والخصيان والساده أبناء على وخدمه مسجد الفاروق الأعظم ومسجد قباء والرواتب السنوية لقراء القرآن الكريم و الشفاء الشريف والبخارى.
٥٥٣٨٦٠	كذلك	
٦٧٠٠٥	من وقف عبد المجيد خان	
٢٤٠٠	من خزينة الأوقاف السلطانية	
٢٤٠٠	من الأوقاف المضبوطة	
١٨٥٧٢٤٨	المجمـــــوع	

قرش	نوع الوقف	محل الصرف
١٣٦٨٠	من الأوقاف المشروطة	رواتب ومخصصات من الأوقاف المضبوطة لمدرسى مدرسة الحميدية وبعض المستحقين من الفقراء والصالحين.
٤٣٨٠	من وقف السلطان عبد الحميد المخلوطة	
٢٩٩٤٠	من وقف السلطان محمود الثانى	
١٥٠٠	من الوقف المجهول النظارة	
٢٦٤٥٨٨	من خزينة السلطان الخاصة	
٤٠٩٧٨	كذلك	
٢٢١٢٣١٤	المجمـــــوع	

قرش	نوع الوقف	محل الصرف
٤٤٣٧,٥	من وقف السلطان محمود الثانى	رواتب مدرسى المدرسة المحمودية وأمين مكتبتها ومرضى المستشفى المجيدية وخدمها وسائر موظفيها.
١٤٣٧,٥	كذلك	
٨٥٣٠	كذلك	
٢٢٢٦٧١٩	المجمـــــوع	

قرش	نوع الوقف	محل الصرف
٣٠٠٠	من وقف عبد للجيد خان	المعاشات السنوية لأمناء مكتبة مدرسة السلطان عبد
٤٨٠٠٠	كذلك	للجيد خان ووكيل الشريفة وخدام المدارس التى أنشئت
٣٤٥٦٠	كذلك	حديثا وسقائى الصنابير وأطباء وصيادلة وجراحى
٣١٧٣٤	كذلك	المستشفيات ونظار المدارس سالفة الذكر
٤١٩٢	كذلك	
٢٣٤٩٠٠٥	المجمـــوع	
١٩٧٢٠	من وقف والدة السلطان بزم عالم	رواتب السنوية لقراء سورتى تبارك والفجر لروح والدة السلطان بزم عالم ووظائف مشيخة المدينة المنورة
٤٧٩٧٦	من خزانتى المالية والأوقاف	
٢٤١٦٧٠١	المجمـــوع	

الصرة الخاصة بأهل المدينة المنورة

إن المجموع الكلى لهذه المبالغ المقيدة بهذا الجدول (١٢٠١٦٧٠٠)، (٨,٠٦٧,٤٥٥) قرش زيادات جديدة كما أن مبلغ (٣,٥٤٩,٢٤٦) قرش من الصرة القديمة، ومبلغ (٧,٥٦٦,٢٠٣) قروش ونصف من هذه النقود تسلم إلى أمانة الصرة موضوعة فى أكياس مختومة مغلفة، كما أن مبلغ (٤,٣٩,٥١٧) قرشا ونصف قرش من أموال الشام ترسل بواسطة الحوالة ١٨٩٩٠ قرشا تعطى إلى الأشخاص المقيمين فى إستانبول.

إجراءات الصرة للموظفين القائمين على أحواض المياه فى القدس الشريف وطريق الحج.

قرش	نوع الوقف	محل الصرف
٧٧٨٠,٥	من الأوقاف المضبوطة المقررة	تعطى لموضفى القدس الشريف وموظفى النزل التى تكون
١٠	من وقف عمر بك	على طريق الحج وتعطى عادة لمشايخ العربان.
٦٧٥	من وقف الحرمين الشريفين	
٦٠٠	من وقف الحاج أدهم أفندى	
١٩٣٤	من الأوقاف المضبوطة المقررة	
٤٠٠	من وقف السلطان عبد الحميد	
١٤٧,٥	من الخزينة المالية الجلية	
١١٥٤٧	المجمـــوع	

مجموع الصرة السلطانية من حيث المجموع الكلى

الصرة القديمة	الصرة الجديدة	مجموع الصـــرر
٢٧٠٠٦٩	٧٤٩٣٤٦	١١٥٤٧ التى كانت تمنح لمكة المكرمة.
٨٠٤٧٩٦	١٦٦٧٤٥٥	٢٤١٦٧٠ التى كانت تمنح للمدينة المنورة.
١١٥٤٧		١١٥٤٧ التى كانت تمنح للقدس الشريف..
١٠٣٠٨٦٢	٢٤٧٢٢٥١	٣٥٠٣١١٣

صورة العلم والخبر

إن الصرة القديمة التى أعتاد إرسالها إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة والأماكن الأخرى أخذت من خزائن أوقاف الحرمين والأوقاف السلطانية والخزائن الأخرى لسنة كذا.. على أن تعطى لأصحابها الكرام فى أماكن إقامتهم شهرا بشهر، حسب النظام المتبع وإرسالها مقدما مخصوما من الرواتب الجديدة لسنة كذا.. موضوعة كوديعة فى أمانة الصرة السلطانية كما هو مقيد فى البند الأول من سجل الحساب والمصروفات؛ لذلك تم إرسالها إلى مكة المكرمة ـ شرفها الله تعالى إلى يوم القيامة ـ مع الإضافات الجديدة وهى مبلغ (٥٠٠٧٤,٨٦٥) قرش وإلى المدينة المنورة (نورها الله تعالى إلى يوم الآخرة) مبلغ (١٢,٠١٦,٧٠١) قرش كما هو مقيد فى البند الثانى، وإلى القدس الشريف وما فى طرق الحج من أحواض الماء صرتها الخاصة محسوبا لسنة كذا.. والتى تساوى (١١١٥٤٧) قرش، والتى يبلغ مجموعها (١٢,٢٥٣,١١٣) قرش مبينا مقدار المبالغ الخاصة بالصرة القديمة وسنتها ومقدار المبالغ الخاصة بالصرة الجديدة وسنتها، ورواتب أى سنة هى.

أوضح كل هذا فوق بنوده كما عرف مجموعها فى خاناتها الخاصة وخصم منها المبالغ المذكورة لتسوية الإيرادات مع المصروفات مبلغ (١٤١٧٦) قرش ثم أعد ودبر مبلغ (١٧,٠٨٦,١٣٩) قرش ما بقى بعد الخصم فى ظل الرعاية السلطانية نقدا.

وحتى تصرف تلك المبالغ التى أشير إليها مقيدة فى خانات المجموع، نقدا من خزينة وزارة الأوقاف السلطانية يجب أن يبين أماكن صرفها وكيف تم تعويضها، ثم تقيد فى دائرة المحاسبة ولإتمام الإجراءات الأخرى حتى تمر بإدارة الإيرادات وقلم المحاسبات اليومية.

ولا يدخل فى هذا الحساب نقود المحروقات واللوازم الأخرى الضرورية، ويبعث ما اعتادت بلاد الحرمين استهلاكه سنويا من المحروقات والضروريات عينا وبطريقة مستقلة.

وإن لزم إضافة مجموع أثمان هذه الأشياء للحساب العام إلا أن هذا سبب فى زيادة مقدار الصرة مليونى قرش بالتخمين. وبناء على ذلك سيصل ما يرسل إلى الحرمين فى كل سنة إلى (٣,٩٠٣,١١٣) قرش، وإذا ما أضيف إليه الرواتب الأخرى التى تساوى (٤,١٣٦,٥٧٦) قرش، سيكون إجمالى المبلغ (٨,٠٣٩,٨٨٩) قرش أى ما يعادل (١٦٠٧٩) كيسا و (٣٨٩) قرش. إن مبلغ (٤,١٠٠,٠٠٠) قرش وكذا التى يطلق عليها الرواتب الأخرى هى المبالغ التى تصرف على أمناء لصرة المبشرين ورياسة الخلع ومرتبات إمارة مكة المكرمة ومخصصات بعض الموظفين وقيمة ما يرسل من البخور مستقلا، ومصروفات الطريق التى يتقاضاها أشراف المدينة عندما يخرجون لاستقبال المحمل الشريف، وأجر جمالهم وما بقى من الصرة ثمنا للخيام، ولتعمير الزكائب التى تحفظ فيها أكياس الرزق، وأكياس الفراشة ومصروفات صنع الخلع التى ترسل إلى أمير مكة، والخلع التى تقدم فى الطريق من الشام إلى مكة المكرمة وأشياء أخرى، والمبالغ التى تمنح إلى أهالى الحرمين باسم الجوالى وتموين الحج وحراس القوافل السلطانية من البدو.

وقد أوضحت كمية هذه المبالغ وكيفية توزيعها فى الجدول الذى يحتوى على رواتب الصرة السلطانية العامة كل شىء على حدة.

الرواتب العامة للصرة السلطانية

القروش	المـــــــواد
٥٢٣٢٥٠	مخصصات أمناء الصرة
٢٠١٤٨٣	مخصصات المبشرين
٤٧٨٥٦	مخصصات المبشر
٢٢٧٥٠	مخصصات رياسة الخلعة
٣٥٠٢٣	رواتب إمارة مكة المكرمة الجليلة
١٨٠٦١٢٠	مخصصات من بعض الموظفين
٢٤٨٧٥٢٠	ثمن ما يرسل من بخور
٢٦٧٤١	أجرة جمل ومصروفات الطريق للشريف الذى يرسل من مكة المكرمة لاستقبال المحمل الشريف من المدينة المنورة
١٩٥٧٠	مصروفات لتعمير المكان الذى يحفظ فيه ما أعطى لأمناء الصرة من الخيم وأكياس الفراشة والزورق
٣٤٩٥٨	المصروفات لصنع الخلعتين اللتين ترسلان من إستانبول إلى أمير مكة
٥٦٤٦٤٠	الخلع والأشياء الأخرى التى تقدم فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ولأهالى الشام فى طريق الحج وبدل العطية الريفية والتى تعرف بجوالى[1].
٣٦٠٠٠٠٠	مخصصات تموين الحج وحراس القافلة السلطانية
٩٨٤٩٠٨١٦	رواتب مكة المكرمة
١٩٢٢٣٧٣٣٠	رواتب المدينة المنورة
١١٣١٩٢٠	رواتب القدس الشريف
٨٠٣٩٨٨٩٢	المجمـــــوع

تطلق المرتبات الحجازية على المؤنة التى يتصدق بها الملوك العثمانيين حسب الحاجة إلى أهالى الحجاز الكرام، وإلى الآن تشترى من قبل الخزانة المالية كل عام وترسل إلى البلاد الحجازية، ويعطى هذا المبلغ خارج مبلغ (٨,٠٣٩,٨٨٩) قرش (٢٦) بارة هو المجموع الكلى لجدول الصرة السلطانية ومقداره (١٨,٤٩٨,٨٠٣) قروش، وهذا يعنى أنه يصرف من خزينة وزارة المالية

(١) إن أهم مصارف هذه المبالغ هى ما يقدم لقبائل حسنة وولد على، وغزة، وبنى صخر وروله، والعطايا المعتادة والرواتب الأخرى التى ترسل سنويا.

(٢) هذه الرواتب خاصة من خزانة الأوقاف السلطانية وهى مبينة فى الجداول التى تشمل على الصرة القديمة والزيادات الجديدة كيفا وكما.

للرواتب الحجازية سنويا (٣٦,٩٩٦) كيسا و (١٠٣) قرش كما وضح ذلك فى بند الميزانية من عدد (١٤٢٢) من الصحيفة الملغاة. وعندما أدرج هذا المبلغ إلى مجموع الصرة السلطانية يوضح ويؤكد أن وزارة المالية العثمانية ترسل إلى أهالى الحجاز (٢٦,٥٣٨,٦٩٢) قرش و (٢٦) بارة، وإذا كان هناك تفاوت بين المبالغ المقيدة فى جداول الصرة السلطانية وجداول الأوقاف السلطانية من حيث المبالغ التى صرفت لأهالى الحرمين ولموظفى أحواض الماء التى فى طريق القدس الشريف قدره (٥٨٤,٤٣١) قرش ١٤ (بارة)؛ فهذا الفرق هو معاشات موظفى مديرى مكة المعظمة والمدينة المنورة وخصيان الحرمين وموظفى المكتبات الميقاتية ومستشفى الغرباء وأثمان أرزاق من يعنون بحدائق العمارات السلطانية ومشايخ الحرمين وكاتب الحسابات اليومية للخزينة النبوية وموظفى مستشفى المجيدية وأمناء مكتبات ومدرسى المدرستين الحميدية والمحمودية، فإذا ما أضيف هذا المبلغ إلى جدول الصرة السلطانية نرى أن الجدولين قد تقابلا وتوازنا.

ويمنح الأهالى الكرام المجاورون مبلغ (٢,٠١٣,٤١٠) فى كل عام باسم (بدل الشهادة) من خزينة الأوقاف السلطانية يحصل على هذا المبلغ من عشر راتب شهر مارس من الموظفين الذين يتقاضون راتبا قدره (٢٥٠٠) قرش فما فوقه، فخزينة الأوقاف السلطانية تضم لوارداتها عشر راتب شهر مارس الذى يرسل إليها من الدوائر الحكومية وتؤدى بهذا بدل الشهادة.

وتعطى هذه النقود إلى الذين يحملون الشهادة من أهالى الحرمين من إدارة الترجمة للحرمين وبما أنها كانت توزع بطريقة لا ترضى أصحاب الشهادة وتتسبب فى مشاكل كثيرة وقد انزعج كل أهالى الحجاز من هذه الحالة وقدموا الطلبات إلى المقامات العالية مشتكين من هذه الحالة حتى إنهم أوصلوا صيحات شكاياتهم إلى سمع السلطان.

ولم يرض السلطان الذى ذاعت رحمته فى الآفاق أن ينزعج أهالى الحرمين

إلى الحد الذى رفعوا معه أصواتهم بالشكوى، فأمر بتشكيل لجنة خاصة تتسلم ما يستقطع من رواتب موظفى الدولة وتوزع هذه النقود وحسنت إدارتها فى سنة ١٢١٧.

وازنت اللجنة المكونة ما تراكم من الديون بسبب الواردات والمصروفات، وتبين أنها (٥٨٧,٩٩٨) قرش ونصف قرش. أى أكثر من الإيرادات فى السنين السابقة، وأصبحت خزينة الأوقاف الجليلة مديونة لأهالى الحرمين فى بدل الشهادة والإكرامية بمبالغ كبيرة، وعرفت أنه باستمرار هذه الحالة لن يمكن تسديد الديون المتراكمة فضلا عن إعطاء البدلات المذكورة سنة بسنة لأصحابها لذلك قررت إعطاء أهالى الحرمين ما تعودوا أن يأخذوه سنويا فى وقته دون إجبارهم على الشكوى وكذلك تسديد الديون[1] المتراكمة آملة فى زيادة الإيرادات بتخصيص صندوق يوضع فيه مازاد من الإيرادات وذلك بتصفية (١,٠٤٦,٢٠٠) قرش سنويا من المجموع الكلى للبدلات والإكراميات ومقداره (٣,٥٣٤,٧٥) قرش، وذلك بعد التخابر مع مجلس الشورى للدولة وإعداد المضبطة اللازمة والتى تحتوى على مقدار المقررات القديمة بعد التصفية وعرضت اللجنة كل هذا على ملاذ الخلافة مع الجداول الخاصة.

وبعد دراسة ما جاء فى قرار المضبطة التى عرضت على اللجنة دراسة عميقة دقيقة وتوضيح موادها المترجمة وتحقيقها صدور الإرادة السلطانية بإجراء ما يلزم بلغ الأمر كله إلى وزارة الأوقاف السلطانية مع التأشيرة السلطانية لإجراء اللازم فى سنة (١٢١٨). وكانت وزارة الأوقاف اعتادت أن تودع تلك المبالغ بواسطة إدارة الحرمين لأجراء ولكنها أخذت توزعها الآن بواسطة اللجنة المذكورة.

إن مجموع العشر الذى يستقطع من راتب شهر مارس فى سنة ٩٧ كما جاء

(١) كان تراكم الديون بسبب سوء الاستعمال فكان هناك إهمال شديد وعدم مبالاة عند كتابة أسماء من يأخذون بدل الشهادة فى الدفاتر الخاصة وكانت تكتب فيها أسماء وهمية لاوجود لأصحابها.

فى المضبطة التى عرضتها دائرة الداخلية للدولة وصل إلى (٢,٥٤٦٠٧٥١) قرش ونصف قرش، وكان مبلغ (٢٥٠٠٠) قرش منه مقابل الديون التى تراكمت قبل صدور الأمر السلطانى بتشكيل لجنة خاصة ومبلغ (١٢٤١) قرشا ونصف قرش، وقد حجزت وخصصت مبالغ (١٥٠٠) قرش لرئيس كتاب اللجنة المذكورة، و (٥٧٠٠) قرش لمعاش الفراشين والخدمة والمتقاعدين، و (٣٠٠) قرش ثمن ما استهلكته اللجنة من الأوراق ومع هذا لم تكن تلك الإيرادات متساوية فى كل السنوات بل تزيد سنة وتنقص سنة.

وكان مجموع ما استقطع من المعاشات فى شهر مارس سنة ١٢٩٧ (٣,٠٠٦,٩٨٦) قرش، وبناء على هذا التقدير يزيد عما استقطع من عشر شهر مارس لسنة ٩٧ مقدار (٦٠٢٣٤) قرش و (٢٠) بارة.

جدول ترتيب بدلات الشهادات

المقدار السنوى لكل طائفة			المقدار السنوى لكل فرد			عدد أفراد الطائفة	تقسيم الطوائف
الطائفة القروش العتيقة	القروش الجديدة	الخصم	القروش العتيقة	القروش الجديدة	الخصم		
٨٢٥٠٠	٥٤٩٠٠	٢٧٦٠٠	٥٥٠٠	٣٦٦٠	١٨٤٠	١٥	صف أول الشرفاء
١٢٦٥٠٠	٨٤١٨٠	٤٢٣٢٠	٥٥٠٠	٣٦٦٠	١٨٤٠	٢٣	الطائفة الأولى مكة
٤٥٥٠٠	٣٠٢٩٠	١٥٢١٠	٣٥٠٠	٢٣٣٠	١١٧٠	١٣	الطائفة الثانية مكة
١٠٠٠٠٠	٦٦٤٠٠	٣٣٦٠٠	٢٥٠٠	١٦٦٠	٨٤٠٠	٤٠	الطائفة الثالثة مكة
٤٠٠٠٠	٢٦٦٠٠	١٣٤٠٠	٢٠٠٠	١٣٣٠	٦٧٠	٢٠	الطائفة الثالثة ـ الأهالى
١٢٠٠٠	٨٠٠٠	٤٠٠٠	١٥٠٠	١٠٠٠	٥٠٠	٨	الطائفة الثالثة المجاورين
٤٠٦٥٠٠	٢٧٠٣٧٠	١٣٦١٢٠	--	--	--	١١٩	
١٤٥٠٠٠	٦٩٥٤٠	٧٥٤٦٠	٥٥٠٠	٣٦٦٠	١٨٤٠	١٩	الطائفة الأولى المدينة
٥٦٠٠٠	٣٧٢٨٠	١٨٧٢٠	٣٥٠٠	٢٣٣٠	١١٧٠	١٦	الطائفة الثانية المدينة
٣٢٥٠٠	٢١٥٨٠	١٠٩٢٠	٢٥٠٠	١٦٦٠	٨٤٠	١٣	الطايفة الثالثة المدينة
١٦٠٠٠	١٠٦٤٠	٥٣٦٠	٢٠٠٠	١٣٣٠	٦٧٠	٨	الطائفة الثالثة ـ الأهالى
٦٠٠٠	٤٠٠٠	٢٠٠٠	١٥٠٠	١٠٠٠	٥٠٠	٤	الطائفة الثالثة المجاورين
٦٦٢٠٠٠	٤١٣٤١٠	٢٤٨٥٩٠	--	--	--	١٧٩	

إن مبلغ (٤١٣٤١٠) قرش الذى وضع فى هذا الجدول خاص بأصحاب الشهادة الذين رتبوا مقسمين على خمس طوائف وطبقات.

ويمنح لسبعة وخمسين شخصا من الطبقة الأولى مبلغ (٣٦٦٠) قرش كل سنة، وعلى تسعة وعشرين شخصا من الطبقة الثانية يمنح لكل واحد منهم سنويا (٣٣٣٠) قرش، وعلى ثلاثة وخمسين من الطبقة الثالثة يمنح لكل واحد منهم مبلغ (١٦٦٠) قرش، وعلى ثمانية وعشرين شخصا من الطبقة الرابعة يمنح لكل واحد منهم (١٣٣٠) قرش و (١٠٠٠) قرش لكل واحد من الطبقة الخامسة.

الطبقة الأولى هم الأشراف الكرام والسادات ذوى الاحترام والأئمة والخطباء، والطبقة الثانية هم الممتازون من الأهالى الذين يقال لهم أبناء الأسر، والطبقة الثالثة هم خدم الحرم الشريف، والطبقة الثالثة من الأهالى والمجاورين، وقد عد الطبقة الثالثة من الأهالى والمجاورين كل واحد منهما طبقة مستقلة إن ١٧٩ شخصا من الذين يكون الطبقات المذكورة ١١٩ منهم مكى وستون منهم من المدينة، وتطبع كل سنة بمعرفة وزارة الأوقاف شهادات بالعدد المذكور من قبل اللجنة المذكورة كل شهادة بالختم الخاص بطبقتها ثم تسلم إلى أمانة الصرة السلطانية، وترسل إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة على أن توزع بالقرعة، ثم توضع عليها أرقامها وتختم أسفلها من إدارة الحرمين المحترمين وتسلم إلى أصحابها، تفوض إمارة مكة فى توزيع خمس عشرة شهادة من مجموع مائة وتسع شهادات هى الخاصة بمكة المشرفة، ومتولى رياسة الإمارة يعطى خمس عشرة شهادة إلى من يراه مناسبا من الأشراف، والباقى من الشهادات وعددها أربع ومائة شهادة توزع على الأهالى بالقرعة الشرعية، وبناء على العادة المرعية من قديم يدخل الفرد الواحد فى القرعة مرة كل أربعة أعوام، كما أن خمسا وعشرين من مجموع الشهادات الخاصة بالمدينة المنورة توزع على السادة العلويين والحسنيين والأئمة والخطباء وتعطى لهم بقاعدة التناوب، والباقى وعددها خمس

وأربعون شهادة تعطى للأشخاص الذين أصابتهم القرعة والتى تجرى مرة واحدة كل أربع سنوات.

ويأخذ الشخص الذى ينتسب إلى طبقة من الطبقات المذكورة كل اثنتى عشرة سنة شهادة حسب قاعدة التناوب.

وفى كل سنة يقيد أسماء الأشخاص الذين أعطوا شهادة فى سجل خاص، سواء كان عن رأى شريف مكة أو وفقا لقاعدة التناوب أو بإجراء القرعة الشرعية، ويرسل السجل إلى وزارة الأوقاف الجليلة وتتولى إدارة المصروفات فى تلك الوزارة تحويله إلى اللجنة الخاصة، وقد تكون لهؤلاء الأشخاص إيرادات أخرى أو معاشات.

بعد ما تعطى الشهادات إلى أصحابها فى الحرمين الشريفين وفق الأصول المرعية وتقيد فى السجل وترسل إلى إدارة المصروفات العمومية، يتوجه بعض أفراد الطبقات الخمس إلى إستانبول ليتسلموا بدل شهاداتهم بالذات من خزينة الأوقاف السلطانية، وبعضهم يبيعون شهاداتهم ليقضوا حاجاتهم، وبعضهم يرسلون الوكلاء عنهم وكل من يأتى إلى باب السعادة ويبرز شهادته فاللجنة المذكورة تطابق الشهادة بما عندها ثم تكتب مذكرة وتبعث إلى وزارة الأوقاف بعد أن تعطى صورة منها لإدارة المصروفات العامة.

عندما كانت توزع الشهادات والمنح من قبل إدارة الحرمين للترجمة كان يحدث سوء تصرف، وقد اتخذت لجنة التوزيع تحت الرعاية السلطانية قاعدة لا يمكن وقوع التلاعب فيها عند التوزيع، وقد قيدت وضبطت جميع الأشياء المرسلة من عشر المعاش كنوعها ومقدارها ولاسيما أثمان المسكوكات، وبهذا النظام لن يشتكى أهالى الحرمين من موظفى خزينة الأوقاف السلطانية إلا إذا ألغيت اللجنة المذكورة واستشاراتها، أو إذا أوقفت مبالغ شهر مارس أو نقصت.

المنحة

يعطى لأهالى الحرمين سنويا مبلغ (٧٥١٠٠) قرش بدل المنحة وهذا المبلغ أيضا يؤخذ من عشر رواتب شهر مارس. والذين يأخذون بدل المنحة من سكان الحجاز ينقسمون إلى خمس طبقات، والذين يشكلون الطبقات الخمس المذكورة (٨٠) منهم من مكة المكرمة و (٤٥) منهم من المدينة، وعددهم الإجمالى (١٢٠) شخصا، الطبقة الأولى من هؤلاء ٦، والطبقة الثانية ٢٢، والطبقة الثالثة ٤٣، والطبقة الرابعة ٣٧، والطبقة الخامسة ١٢ نفرا.

وبما أنه يشترط أن يشمل هؤلاء المجاورين أيضا، فإن المجاورين يشكلون الطبقة الخامسة ويمنح لكل واحد من أصحاب الطبقة الأولى (١٠٠٠) قرش، وكل واحد من أصحاب الطبقة الثانية (٨٣٠) قرشا، والطبقة الثالثة (٦٦٠) والطبقة الرابعة (٥٠٠) والطبقة الخامسة (٣٣٠) قرشا عائدا سنويا.

وحتى فبراير من السنة المالية (٩٦) لم يكن صرف المنح محددا ولا مقننا وكانت تعطى بالنسبة للذين يذهبون إلى إستانبول، بالأحرى الذين يعرفون كيف يقيدون أسماءهم فى دفتر التوزيع.

وقد قرر إعطاء (٧٥١٠٠) قرش بدل المنحة اعتبارا من شهر مارس للسنة المالية (٩٧) كما هو مسطر فى الجدول الآتى الذكر وقد صدر الأمر السلطانى بتوزيع تلك المبالغ بموجب الأوراق التى طبعت من قبل اللجنة وإرسال تلك المبالغ إلى الحرمين المحترمين بمعرفة أمانة الصرة السلطانية، وإن كانت اللجنة قد طبعت الأوراق المذكورة وأرسلتها، إلا أن المبلغ المذكور آنفا وهو (٧٥١٠٠) قرش لم يرسل فى وقته لأجل ذلك قد صدر الأمر السلطانى بإعطاء بدلات المنح كعهدها القديم فى باب السعادة. والآن تعطى فيها.

وأصبح من أحكام القواعد الموضوعة إعطاء تذكرة مرور لمن يستحقون المنح من أهل مكة من الولاية الحجازية الجليلة، ولمن يستحقونها من أهل المدينة من محافظة المدينة المنورة، ومع هذا لا تعطى المنح لمن لا يحملون تذكرة المرور أو من يفتقدون الشروط اللازمة لنيل المنح.

الجدول الذى ينظم البدلات التى ينبغى صرفها اعتبارا من عام ٩٧

المقدار السنوى لكل طائفة			المقدار السنوى لكل فرد			عدد أفراد الطائفة	تقسيم الطوائف
الطائفة القروش العتيقة	القروش الجديدة	الخصم	القروش العتيقة	القروش الجديدة	الخصم		
٦٠٠٠	٤٠٠٠	٢٠٠٠	١٥٠٠	١٠٠٠	٥٠٠	٤	صف أول الشرفاء
١٧٥٠٠	١١١٠٠	٥٩٠٠	١٢٥٠	٨٣٠	٤٢٠	١٤	الطائفة الأولى مكة
٢٩٠٠	١٩١٤٠	٩٨٦٠	١٠٠٠	٦٦٠	٣٤٠	٢٩	الطائفة الثانية مكة
١٨٨٧٥٠	١٢٥٠٠	٦٢٥٠	٧٥٠	٥٠٠	٢٥٠	٢٥	الطائفة الثالثة مكة
٤٠٠٠	٢٦٤٠	١٣٦٠	٥٠٠	٣٣٠	١٧٠	٨	الطائفة الثالثة ـ الأهالى
٧٥٢٥٠	٤٩٨٨٠	٢٥٣٧٠	--	--	--	٨٠	الطائفة الثالثة المجاورين
٣٠٠٠	٢٠٠٠	٤٠٠٠	١٥٠٠	١٠٠٠	٥٠٠	٢	طبقة الشرفاء
١٠٠٠٠	٦٦٤٠	٣٣٦٠	١٢٥٠	٨٣٠	٤٢٠	٨	الطائفة الأولى المدينة
١٤٠٠٠	٩٢٤٠	٤٧٦٠	١٠٠٠	٦٦٠	٣٤٠	١٤	الطائفة الثانية المدينة
٩٠٠٠	٦٠٠٠	٣٠٠٠	٧٥٠	٥٠٠	٢٥٠	١٢	الطايفة الثالثة المدينة
٢٠٠٠	١٣٢٠	٦٨٠	٥٠٠	٧٣٠	١٧٠	٤	الطائفة الرابعة المجاورين
١١٣٢٥٠	٧٥٠٨٠	٣٨١٧٠	--	--	--	١٢	الطائفة الخامسة

الصحيفة الخاصة بمنح الطبقة الثانية

قد ختم فى هذا المكان مبينا ما أخذته من منحة خاصة بى وهى. . . قرشا من خزينة مديرية الحرم الشريف وذلك بعلم اللجنة، وبما أن المدعو عبد الرحمن بن محمد الفقيه من أبناء العلماء والمقيد فى الجدول أعلاه ضمن الطبقة الثانية أراد هذه المرة ـ حسب المقتضى ـ السفر إلى العاصمة السلطانية، وبما أنه أعطى له الإذن من قبل الإمارة والولاية بذلك وقد أعطى له بمعرفتى مبلغ. . . قرش منحته الخاصة من خزينة مديرية الحرم الشريف وعليه عند وصوله إلى الباب العالى أن

يسلم الرخصة إلى لجنة إدارة الحرمين المحترمين، وإذا اقتضى الأمر أن يعطى له تذكرة المرور وكل ما يخص هذا الموضوع فالأمر فى يد من له الأمر.

فى جمادى الآخر .... سنة

العضو العضو العضو المفتى رئيس الإدارة

صورة الأمر والقانون

خاص بسكان الحرمين المحترمين الذين يريدون أن يأتوا إلى الباب العالى السلطانى بنية الاستعطاف، إذا كان المشار إليه من الأشراف والشرفاء يجب عليه أن يختم طلبه فى المكان الخالى بالختم من نقيب الأشراف، وإذا كان من السادات يختمه من نقيب السادات، وإذا كان من الأئمة والخطباء يختمه من شيخ الخطباء، وإذا كان من المطوفين يختمه من رئيس الأدلاء، وإذا كان سقاء يختمه من رئيس السقائين، وإذا كان من خدمة الحرم الشريف فليختمه من نائب الحرم، وإذا كان من الأهالى والمجاورين يختمه من المحتسب، ولن تعطى منح لمن ليس لهم حق فى طلب المنح عند وصولهم إلى الباب العالى، ولن تعطى المنح لموظفى ولاية الحجاز ومديرية الخزانة وكتبتها والآخرين وللأطفال صغار السن والعبيد والخدمة والأهالى والمجاورين الذين يشتغلون بالتجارة، ولن تعطى المنح للذين أعطى لهم بدل الشهادة فى السنة المذكورة. ولن تعطى هذه المنحة للذين اتخذوها تجارة ويذهبون كل سنة إلى الباب العالى للاستعطاف، وإنما ستعطى للذين يجيئون كل سنتين مرة.

وعندما توزع أوراق المنح هذه على أصحابها سيقدم إلى وزارة الأوقاف السلطانية من قبل اللجنة والمديرية سجلا يحتوى على أسمائهم وشهرتهم وأرقامهم مثل الشهادة، مع إذن الصرف.

(ملحوظة) أول من بعث الصرة إلى الحرمين هو المقتدر بالله العباسى وأصبح

ذلك عادة، وكان مقدار الصرة التى أرسلها المقتدر بالله (٣١٥٤٢٦) (٣١٥٤٢) ذهبا فيلوريا[١]، وقبل المقتدر بالله بواحد وثمانين عاما أو اثنين وثمانين عامًا كان الواثق بالله قد أرسل إلى فقراء الحرمين المنح والهبات، إلا أنها لم تكن تبعث سنة بعد سنة بل كانت توزع فى موسم الحج فقط، كان الواثق بالله مثل المأمون كان يكرم ويعز ويوقر السادات العلوية والحسينية. وفى العام الذى يحج فيه كان يبذل العطاء لفقراء الحرمين إلى حد الإثراء؛ وذلك البذل العظيم كان بسبب اعتبار فقراء الحرمين من سلالة أبناء الحسنين رحمة الله عليهما.

وكان الثانى فى إرسال الصرر بعد المقتدر بالله السلطان محمد خان جلبى. إذ أرسل صرة فيها الكفالة ونال شرف الترتيب الثالث فى إرسال الصرر نجله النجيل مراد خان الثانى أسكنه الله الفردوس.

أما الصرة المرسلة للمرة الثالثة فكان مقدارها (٣٥٥٠٠) فيلورى من الذهب جرى العرف بإرسالها فى كل عام.

وأرسل السلطان مراد خان الثانى فى سنة (٧١٧) الصرة الرابعة وتصادف إرسال الصرة للمرة الخامسة عام (٨٥٥) للهجرة.

وكان مقدار الصرة التى أرسلت سنة (٨٥٥) ٨٠٠ كيس وكان شاه إيران «شاهرخ» أيضا قد أرسل فى سنة (٨٤٣) مقدارا من الصرر.

قد اعتاد السلطان بايزيد خان الثانى ابن السلطان محمد خان من سنة (٨٨٦) إرسال صرر سنوية مقدارها (١٤٠٠٠) قطعة ذهبية على أن يكون نصفها لأهل مكة ونصفها الآخر لأهل المدينة المنورة وزاد بعد ذلك مقدار الصرة سنة بعد سنة إلى أن وصل للمقدار الحالى.

مطالعة

الذين يعرفون أهمية موقع الحرمين الشريفين وحرمتهما والذين يكنون الحب لهما بحكم دينهم يجب ألا يستكثروا المبالغ التى تقدم لها، ومع هذا فأى شخص

(١) كتب مؤلف «روضة الخلفاء» فى تاريخه أن هذا الشخص كان يحسن على فقراء عصره سنويا بمبلغ (٦٩١١٠).

من أهل مكة المكرمة أو المدينة المنورة فكر فى أوقات تخصيص هذه الرواتب، ويجب أن نعترف أن ما يمنح من الرواتب فى حاجة إلى التخصيص والتعديل.

وبما أن الصعوبات التى كانت تعترض حياة أهل الحرمين وطريق الحجاج فى العصور السابقة قد انخفضت وسهلت فى ظل الرعاية السلطانية إلى درجة كبيرة بحيث لم يبق هناك سبب للتبذير عند خروج موكب الحج وعودته، ومثال ذلك إعطاء أمناء الصرة الذين يتقاضون (٥٠٠٠٠٠) قرش رواتب مقننة وإعطاؤهم (١٠٠) قرش ثمن البغل، (٢٥٠) قرش مصروفات الطريق وإعداد المبيت، وإذا ما وجد الجمع بين أمانة الصرة وبين وظيفة القيام بالحفظ على المؤونة، وإذا ما دفعت وسويت أجور الجمال لحمل أحمال الصرة السلطانية وزكائب الفراشة والرواتب الأخرى من هذه المخصصات وسدد مبلغ (٦٠٠٠) قرش الخاص بالحفظ والمحافظة مع مصروفات الطريق ومعاشات الحراسة ومعوناتها من إدارة المؤونة للحج وأعطى لهذه الإدارة (١٥٠٠٠٠) فيمكن أن يدخر مبلغا يصل إلى (٣٧٣٢٥٠) قرش من مجموع ما يستقطع من مخصصات أمانة الصرة و(٢٠٠٠٠) من ثمن أجور البغال و(٣٢٥٠) قرش من مصروفات ونفقات معدى أماكن البيات فى الطريق.

ويرى فى جدول الصرة السلطانية مبلغ (٢٠١٤٨٣) قرش وإن هذا المبلغ مجموع النفقات الآتية: (١٠٩,٨٣٠) قرش منها لنفقات الطريق والباقى وهو (١٩٠٦٢) قرش منها نفقات السقاة و(٩٠٠٠) قرش أجرة نقل زكائب فراشة مكة المكرمة و(٥٠٠٠) قرش عطايا و(٥٤٠٠٠) قرش أجور الجمال و(٤٥٩١) قرش النفقات المعتادة.

وبما أن هذه النفقات المذكورة تدفع مستقلة لنقل زكائب الفراشة والزورق فإذا ما نقلت هذه الأشياء مع الصرة يمكن إدخار المبالغ المذكورة كلها. وإن كان مبلغ (٤٩٨٥٦) قرش يرى مستقلا فى الجدول السابق الذكر إلا أن مبلغ (٣٥٥٤٤) قرش منه يعطى كنفقات الطريق ومبلغ (١٠٠٠) قرش كمنح معتادة ومبلغ

(١٣٣١٢) قرش كعطايا. ومهمة هذا الموظف الذهاب إلى مكة المكرمة مع الصرة السلطانية وفى أثناء العودة يحيد عن الطريق ويذهب إلى الشام مع الرسول الخاص، ويعطى للولاية السورية الرسائل التى وجهت من الإمارة ثم العودة إلى دار السعادة، بما أن الرسول الخاص كان يمكنه أن يتم بالبرق كل ما يحدث الآن من تبليغ الرسائل من الولاية إلى باب السعادة فلا ضرورة لبقاء هذه الوظيفة.

وبإلغاء الوظيفة المذكورة ترسل الرسائل المذكورة إلى والى سوريا برسول خاص. وإلى باب السعادة بالبرق، بناء على هذا فمبلغ (٤٩,٨٥٦) قرش أجر الموظف المذكور يظل فى خزينة المالية.

ويشار فى جدول الصرة السلطانية إلى مبلغ (٢٢,٧٥) قرش. إن (١٥٠٠٠) ألف من هذا المبلغ لنفقات الطريق، (٧٥٥٧) قرش منه يعطى كمنحة معتادة لأحد الموظفين. إن مهمة هذا الموظف كانت مصاحبة الخلع التى كانت تصنع من جانب الخلافة كل سنة وما ترسله وزارة الأوقاف، بإعطائه نفقات الطريق وقدرها (٣٠٠٠) قرش سالكا طريق البحر ويسلم ما معه إلى الجهات المختصة والآن تحت ظل التسهيلات التى حدثت فى العهد السلطانى لم تعد هناك حاجة لهذه الوظيفة.

والموظف سالف الذكر الذى كان يتقاضى مبلغًا قدره (٢٢٧٥٠) قرش يناله من إمارة مكة المعظمة عطية خاصة، كما كان يأخذ من خزينة مصر منحة قدرها (٢٥٠٠٠). وكانت من عادة وزارة الأوقاف السلطانية قديما أن ترسل زيوتا بواسطة موظف خاص تدفع أجره خزانة الأوقاف، وإذ أرسلت بعد الآن أيضا بواسطة موظف خاص وأرسلت الخلع بواسطة أمناء الصرة فيمكن إدخار المبالغ المذكورة وكل ما كان يدفع له من العطايا من قبل الإمارة وما يدفع له من خزانة مصر وهو مبلغ قدره (٢٥٠٠٠). إن مبلغ (٣٥,٠٢٣) قرشا الذى أشير إليه فى جدول الصرة السلطانية كرواتب إمارة مكة الجليلة لا لزوم له، ويجب أن يصرف النظر عنه حتى يدخر ذلك المبلغ.

وكان إرسال هذه الرواتب من موجبات عادة قديمة ولكننا الآن يلزمنا ألا نراعى تلك العادة: لأن مبلغ (٥٢٠٠) قرش منه كان بدل الخيل، ومبلغ (١٥٣٧١) قرشا كان خاصا بسرجين فضيين للخيل، ومبلغ (٤,٠٢٢) بدل اثنى عشر من الجوخ، ومبلغ (٢٤٧) قروش ثمنا للفواكه، ومبلغ (٢,٠٢٣) قرشا بدل الحلوى، ومبلغ (٥٠٠٠) منه هبات يجب ألا يرسل أى قرش منه وخاصة ما يرسل منه لبعض الموظفين كمخصصات وهى مبلغ (١٨,٠٦١) ونصف قرش لم يعد له أى مبرر.

إن مبلغ (٣,٦١٣) قرش من هذه النقود نفقات ترسل من باب السعادة إلى ولاية الحجاز كل سنة، ومبلغ (٨٥٧٧٠) قرش لموظفى أمانة الصرة وللمبشرين والآخرين ونفقات صنع الجبب والمعاطف من الفراء، ومبلغ (٢١٤,٥) قرش بدل الفواكه التى أرسلتها أمانة الصرة السلطانية للموظفين، ومبلغ (١٩١٩,٥) قرش بدل ضيافة الشريف وموظفى الإحرام الذين استقبلوا موكب الحج، (٨١٤) قرشا بدل طعام الشريف الذى كلف بتوديع موكب الحج، و(٢٩٢٦,٥) قرش ثمن ما أرسل من مكة المكرمة لأمناء الصرة السلطانية من الشيلان ولإجراءات ونفقات سفر الموظفين الذين أحضروا هذه الأشياء، إذا كان إرسال هذه المبالغ من العادات القديمة وإذا ما صرف النظر عن إرساله بعد الآن يمكن إدخار تلك المبالغ.

هناك فى دفتر الصرة السلطانية مبلغ (٢٤,٨٧٥,٥) قرش بدل ما أرسل من البخور وغيره ويمكن أن يدخر من هذا المبلغ ما قدره (٧٨٧٥,٥) قرش، لأن مبلغ (٢٤,٠٠٠) والكسور يشمل على (٢٠٠٠) منه ثمن البخور (٥٢٥٠) قرش منه ثمن ما اشترى من مخمل لصنع أكياس الخزينة، و(١٨٧٥,٥) قرش لتعمير الصناديق وثمن الأقفال ونفقات نثرية (١٢٠٠) قرش منه ثمن ما يرسل إلى مكة المكرمة من أربعمائة مثقال من دهن الورد، و(٣٧٥) قرشا منه ثمن العود والعنبر الذى يرسل إلى حامل مفتاح البيت المعظم شيبة أفندى.

وإن كان إرسال دهن الورد والعود والعنبر من الأشياء اللازمة لكن لا حاجة لنفقات تعمير الصناديق وشراء الأقفال وغيرها من النفقات، كل هذه المبالغ ومبلغ

(١٢٥٠) قرش ثمن المخمل الذى سيشترى لأكياس الخزينة وفيه كفاية؛ لذا يمكن أن يوفر منه مبلغ (٤٠٠٠) قرش ويقتضى ألا يرسل مبلغ (٢٠٠٠) قرش بدل البخور بالمرة.

وإذا ما خفض من مبلغ (٢٤٠٠٠) قرش والكسور السالفة الذكر والمقدار الذى سبق ذكره يمكن أن يوفر مبلغ (٧٨٧٥) قرش ونصف قرش.

وإن كان إرسال البخور إلى الحرمين فى درجة الوجوب إلا أن ما يرسل من مقادير كثيرة من البخور كل سنة من خزينة الأوقاف السلطانية إلى الحرمين وهو محقق يغنى عن إرسال بدل البخور.

كما أن نفقات الصناديق ضمن النفقات التى تدخل تحت نفقات الأشياء العينية، وبما أن تلك الأشياء قد تحولت إلى البدلات فلا حاجة إلى هذا النوع من النفقات، قد أشير فى جدول الصرة السلطانية إلى مبلغ قدره (٢٦٧٤١) قرش وهو ما تدفعه الخزانة المالية كنفقات الطريق وأجور الجمال للذين تعينهم لاستقبال المحمل الشريف من المدينة المنورة.

وقد خصص مبلغ (٦٣٩١) قرش أجورا للجمال والباقى وهو (١٠,١٧٥) قرش نفقات الذهاب و(١٠,١٧٥) قرش نفقات العودة، وبما أن إعطاء نفقات الذهاب والعودة لموظف وفوقها أجور الجمال ينافى أصول خزينة الصرف إذن يجب خفض أجور الجمال وتحويل الباقى من النفقات إلى خزينة الحجاز رعاية للتصرفات السابقة واتخاذ ذلك قاعدة، يمكن عندئذ توفير مبلغ (٢٦,٧٤١) قرش الذي سبق ذكره.

إذا ما ضمت أمانة الصرة إلى أمانة تموين الحج فسَيُسْتَغْنَى عن نفقات إقامة الخيم وبهذا سيوفر سنويا ما يعطى لأمناء الصرة كنفقات لتعمير الخيم وقدره (١٨,١٠٠) قرش، ويباع كذلك الخيم الموجودة ويخفض من مبلغ (١٤٧٠٠) قرش التى تعطى لإصلاح الزكائب الكبيرة الموجودة فى الخزينة لأجل حفظ أكياس الفراشة والزورق إلى (١٠٠٠) قرش فقط يمكن أن يوفر

من هذا مقدار (٤٧٠) قرش وبهذا يظل فى الخزينة الجليلة مبلغ (١٨٥٧٥) قرش ويمكن تخفيض مبلغ (١١٠٢١٥) قرش وهى مخصصات تموين الحج وجند الأعراب الخاص لحراسة موكب الحج.

وتبين لنا عند اطلاعنا على سجلات تموين الحج أنه يعطى لنفر من كتبة الخزينة مبلغ (٣٤,٠٣٠) قرش، ولكاتب التموين (٩٩٩) قرش راتبا ولكاتب نفقات الطريق وتموين الحج مبلغ (٣٠٣٢٤) قرش لرفيقه (٢٨٥) قرش معاشا و(١٩٠٠٠) قرش مصروفات طريق الحج و(١٢٨١) قرش ثمن الأوراق و(٦٧٥) قرش لرئيس جمالى المحمل الشريف وأفراد الجمالين كنفقات الطريق و(١٢٦٠٠٠) قرش أجر الجمال لنقل الشعير من مزريب إلى مداين صالح و(٩٠٠٠) قرش نفقات الطريق لكاتب الكتيبة البدوية السلطانية (٤٥٠٠) قرش نظير مكان لتموين الحج الشريف ويتولى كاتب الخزينة مسك دفاتر النفقات فى طريق الحج.

ومدة وظيفته أربعة أشهر أو خمسة، فمخصصاته لا تتناسب مع نفقاته لذا يجب خفض راتبه إلى (١٠٠٠) قرش، ونفقات سفره إلى (١٣٠٠٠) قرش، وإذا ما أجريت هذه التخفيضات فإنه يتوفر منها مبلغ (١٢,٣٠٠) قرش، ولعدم وجود حاجة ملحة لاستخدام كاتب المؤن فينخفض راتبه إلى (٢٥٠) قرشا ونفقات طريقه إلى (٣٥٠٠) يمكن توفير مبلغ (٣٩٩٠) قرش فى حالة استخدامه.

بما أن كاتب تموين الحج معين على ألا يذهب إلى الحجاز فتبدأ مهمته اعتبارا من تحرك الصرة من الشام بكتابة التقارير عند اللزوم ويقدم الحساب مرة واحدة فى السنة إلى إدارة محاسبة الولاية، ويضم بعض الأشياء لمخصصات هذه الوظيفة يمكن تحميلها إلى كاتب الخزينة، فيعطى لكاتب الخزينة (٦٣٢٤) قرش ويوفر الباقى وهو (٢٤٠٠٠) قرش وبما أن كاتب التموين يقوم بعمل رفيقه يجب أن يحمل كل هذه الأعمال كلها لكتاب الخزينة فيصرف النظر عن اسخدامه ويجب توفير معاشه وهو مبلغ (٢٨٥٥) قرشا.

وما يمكن توفيره من نفقات طريق الحج وهو مبلغ (٩٠٥٠) قرش من ثمن القرطاسية (٧٧١) قرش ومن نفقات طريق رئيس الجمالين وأفراده (٦٧٥٥) قرشا ما يعطى لنقل الشعير من المزاريب إلى مداين صالح فى صورة قانونية وهو مبلغ (١٢٦٠٠٥) قرش ومن أجور الجمال (٦٣٠٠٠) قرش، والمبلغ الذى سيوفر بإلغاء وظيفة كاتب جنود البدو السنية وقدره (٩٠٠٠) وبقطع مبلغ (٤٥٠) قرش وذلك بتخصيص محل لحفظ مؤنة تموين الحج فى دائرة حكومية أو داخل القلعة.

وبهذه الصورة سيوفر مبلغ قدره (٨٨,٠٢٨) قرش ينفق كل عام مبلغ (٩٣٤٩٥) قرشا وذلك ثمن مصنعية قطعتين من الجبب اللتين ترسلان من باب السعادة إلى أمير الحجاز وإحدى هاتين الجبتين مزركشة وثقيلة نوعا ما ويكلف صنعها (٣٣٢٥) قرش والأخرى ليوم الجمعة (١٦١٢) قرش.

وإذا ما صرف النظر عن إرسالهما بعد الآن سيتوفر المبلغ المذكور فى خزينة المالية للدولة. ويرى فى جدول الصرة السلطانية التى سبق ذكرهر فى خانة مخصوصة مبلغ (٣,١١٤,٦٤) قرش خاصة بخلع أهالى الحرمين ومن فى طريق الحرمين وأهالى الشام وبدلات وعطايا ونقود ذهبية على أنها وظائف متنقلة وقتية، إن (١٠٠٣٥١) قرش من المبالغ المذكورة خصصت للوظائف المتنقلة الوقتية الخاصة بأهالى مكة المكرمة والمدينة المنورة (٧٣٥٥) قرش لسكان مكة المكرمة (٢٣٦٣٥) قرش لسكان المدينة المنورة من طرف رئاسة الوزارة بدل هبة الربعية وهى نقود ذهبية.

ينفق مبلغ (١٧٣٨٢٠) قرش ونصف قرش إلى المدينة المنورة و(٨٠٤٩٧) قرش إلى مكة المكرمة، و(٦٦٣٥٧) قرش ونصف قرش لأمور خاصة فى الشام.

تعطى نفقات الوظائف التى عرضناها مرتبة من خزينة المالية كما هو مبين فى سجلات وزارة الأوقاف وديوان التشريفات؛ إلا أن تلك الخزينة ليس لها أدنى علم عن الأشخاص الذين يعطى لهم، ومقدار ما يأخذون (٧٥٠) وقد تحقق

إعطاء (٧٥٠) قرشا من هذه النقود إلى المبشر الذى ألغيت وظيفته و(٢٥٠) قرش للأشخاص الذين يرسلهم شيخ الحرم النبوى لأمناء الصرة على أنه ثمن الفواكه و(٢٠٠) قرش لرؤساء جمالى الصرة السلطانية.

وبما أنه لا يجوز تكرار صرف النقود لأشياء لا لزوم لها، فيجب أن تخصم المبالغ التى ذكرت وقيدت فى ثلاثة أشهر فى الجدول من مبلغ (٥٦٤٦٤٠) قرش، وبعد الخصم يجب إجراء تحقيقات كاملة والعمل وفق ما أسفر عنه التحقيق والتدقيق.

وقد وصل إلى سمعنا من بعض الذين يؤمن على صحة أقوالهم أن بعض أهل باب السعادة يشاركون فى هذه النقود أصحابها، كما أن الهبات التى جرت العادة بإعطائها للعربات تصرف لهم ناقصة، والخصم الباقى يجد سبيله إلى جيوب المنتفعين وإذا ما استمر إجراء التحقيقات بخصوص هذه النقود ووضعت الخزينة ما التزمت به فى قضية تصرفات بعض الموظفين المهمة تحت المراقبة؛ يؤمل توفير مبلغ (٥٠٠٠٠٠) قرش.

وننقل الكلام إلى مبلغ (٦٠٠,٠٠٠) قرش المخصص لتموين الحج جند العربان يعطى مبلغ (١٣٣,٥٩٩) قرشا من هذه النقود لشيخ قبيلة حسنة و(٢٣٥,٠٩٠) قرشا لشيخ قبيلة ولد على وعنزة و(١٣٣٧) قرشا لشيوخ قبائل بنى صخر و(١٩٣٥٧٥) قرش لمشايخ العربان الذين يسكنون الخيم بعد قلعة مزاريب. ورواتب هؤلاء القديمة تبلغ (٢٧,٧٠٠) قرش الذى تعود أن يأخذه شيخ قبيلة رولة: طعلال الشعلان. وقد ثبت بما قاله سعيد باشا محافظ تموين الحجاج أن هذه الرواتب أكثر من نصابها، ويمكن أن يكتفى بإعطاء قبيلة حسنة (٨٠٠٠) ولقبيلة ولد على مع قبيلة عنزه (١٤٠٠٠)، ولقبيلة بنى صخر (٨٠٠٠٠) وللعربان سكان الخيم ولشيخ رولة (٢٠٠٠٠) قرش وإذا ما قرر إعطاء المبالغ السابقة يمكن توفير (٢٨٣٧١) قرش من هذه الأقسام الخمس. ويصل التوفير الكلى إلى (١٢٥٤,٥) قرش، وإذا ما فتح لهذا الموضوع أهمية عظمى فإن مقدار المتوفرات يزيد ويربو على هذا. «انتهى».

وكان من القواعد القديمة المقررة إرسال رسالة سلطانية مع قافلة الشام تخاطب أمير إمارة مكة المعظمة، وقد حصلنا على صورة من الرسالة التى دبجها والد السلطان كثير المحامد جعل الله مسواه الجنة السلطان عبد المجيد خان قبل خمسة وثلاثين عاما إلى سنى المناقب الشريف محمد بن عون[1]. لذا رأينا أن نسطر تلك الرسالة المفعمة باللفتة السلطانية الكريمة وندرجها فى هذا المكان.

صورة الرسالة السلطانية

إلى صاحب الإمارة مكتسب السعادة المنتسب للسيادة ذى النسب الطاهر والحسب الظاهر، مستجمع جميع المعالى والمفاخر كابرا عن كابر، جمال السلالة الهاشمية فرع الشجرة الزكية النبوية، طراز العصابة العلوية، المصطفوية زبدة آل الرسول وقرة عين الزهراء البتول، المحفوف بصنوف عواطف خالق الكون الشريف (محمد بن على) دام سعده.

إذا ما وصلت رسالتنا السلطانية إليكم ليكن معلوما لديكم، بما لكم من نقاء جوهركم العدنانى، وصفاء طوية الفطرة القحطانية، منذ أن كان لكم فى مقام السيادة قعود، وإلى إمارة مكة صعود بذلتم الجهد فى خدمة الحرمين الشريفين وسعيتم فى رخاء أهلهما والمجاورين لهما، وحققتم لهم كلهم فراغ البال وجعلتم بها الأمر الأهم وأقمتم فى بلاد الحجاز دعائم النظام ووطدتم الأمن لقوافل الحجاج القادمين من كل فج عميق، وحققتم الطمأنينة للتجارة وأبناء السبيل، ومهدتم لهم مهاد الراحة وسعيتم فى رعايتهم فى ذهابهم وعودتهم، بإلهام من وفدنا السلطانى، والمأمول أن تستمروا فى بذل الهمة وفى إنجاز جميع المهام وحسب رغبتنا السلطانية ولكل هذا جعلتم شمس مقامنا تشرق من جديد، وبذلك زركشتم ثياب مناقبكم وزينتموها، فأهدينا إليكم قباء أخضر يشد على عروتيه زران محليان بالماس، وهذه الرسالة السلطانية تحيطكم علما بذلك، وقد أرسلت مع رئيس كتاب ديواننا السلطانى حافظ أحمد، فعليكم أن تلبسوا هذه

(١) إنه والد الشريف عون الرفيق باشا أمير مكة المعظمة الحالى.

الخلعة فى حفل رسمى بعد تلقيها معلنين ولاءكم وإخلاصكم لنا وداوموا على ما أنتم عليه بفضل نجابتكم وأصالتكم فيما يختص بإمارتكم.

والآن يخرج إلى الحج والى الشام وأمير الحج وأميرنا عثمان نورى باشا، فعليكم حماية الزوار والتجار من عدوان العرب، وتأمين طرق الحرمين الشريفين والعمل على راحة ورخاء سكان ومجاورى المقامين الشريفين، وأن ترغبوا جميع أهل التقوى والصلاح فى تلك الأماكن المقدسة فى الدعاء بالخير لنا، وأن ترعوا مصالح المسلمين قاطبة، أن تحموا قوافل الحجاج ابتداء من مدائن صالح بأن تكونوا فى استقبالهم عند القدوم وعند الرجوع، حتى تمنعوا عنهم أذى العربان والطوائف الأخرى المضرة بما عرف عنكم من الشجاعة والحماسة والفروسية، وذلك طبقا لرغبتنا ومساعينا السلطانية، ووفقا لشهامتكم الهاشمية وعليكم أن تتجهوا مع الواقفين عند زمزم والمقام، والمعتكفين فى بيت الله الحرام بالدعاء لنا بدوام دولتنا وعزتها وطول بقائها، وهذا ما سيطيب خاطرنا.

تحريرا فى أوائل شهر جمادى الآخرة لسنة ١٢٦٥هـ بمقام دار السلطنة العلية بالقسطنطينية المحروسة ١٢٦٥.

مقدار الوقود واللوازم الأخرى للحرم الشريف

ما يرسل إلى الكعبة المعظمة كل سنة من باب السعادة والشام وقاهرة مصر من الزيوت والشموع لإنارتها مبين بمفرداته فيما يأتى:

صنـــدوق	عـــدد	الأوقيـة	الدرهـــم
زيت زيتون من باب السعادة	-	١٣٤٣٢	-
زيت زيتون من مصر	-	٤٤٥٩	-
شمع كافورى	٤٤٦	١٤٥	-
شمع أبيض من دهن الحوت	-	٥٨٠	١٢٠
دهن الورد	-	-	٣٠٠
قرص معطر	١	٢٥٠٠	-
بخور(١)	٦	٢٥٠٠	-

(١) خاص بالمسجد الحرام والمساجد الأخرى المأثورة.

الدرهم	الأوقية	عدد	صندوق
-	١٠	٤٠	شمع أبيض
-	١٥٠	١١٠	قنديل ذو قدح على هيئة كروية مثل البطيخ[١]
١٢	-	٢٠٠	شمع أبيض[٢]
-	٣١٠	-	شمع أبيض صغير[٣]
-	١٦	-	زيت زيتون خاص بأيام عادية[٤]
-	٢٧١	-	خاص بليلتى الجمعة والاثنين والشهور الثلاثة

● مقادير وكميات ما يرسل من قبل باب السعادة والشام والخديوية المصرية من زيت الزيتون وغيره من الأشياء الأخرى التى ترسل إلى الحرم الشريف والمساجد الأخرى شهرا بشهر.

ما يرسل من باب السعادة

الدرهم	الأوقية	عدد	صندوق
١٠٠	٤٤٣١	-	زيت زيتون
-	٤٦٨٠	٦٠	الشمع الأبيض

● الشموع الكافورية المطروحة للمساجد التى كتبت أسماؤها فيما يأتى بناء على شرط الواقف على أن يكون كل شمعة أوقية ونصف أوقية وعلى أن يعطى كل ثلاثة أشهر.

الدرهم	الأوقية	عدد	صندوق
-	-	٩	بخور
-	٥٧	-	ورق معطر
١٨٠	-	-	دهن الورد
-	٧١٤	-	شمع

(١) ما يخص مسجد سيدنا (عبد الله بن عباس) فى الطائف كل شمعة بوزن مائة درهم.

(٢) خاص بمقامات المذاهب الأربعة كل واحدة منهم بزنة ثلاثمائة درهم.

(٣) خاص بمقامات المذاهب الأربعة.

(٤) خاص بمسجد سيدنا (ابن عباس) فى الطائف.

الدرهم	الأوقية	عدد	صندوق
-	٢	-	شمع المحاريب
-	٣٨٠	-	مكانس
-	١٧٧	-	اسفنج
-	٢٥٠٠	-	بخور
١١٢	-	-	دهن الورد
٣٠٠	١٤٠٠	-	ورق معطر

ما يرسل من جانب الإدارة الخديوية

الدرهم	الأوقية	عدد	صندوق
-	٣٤٤	٨	شمع(١)
-	٤١	-	شمع(٢)
٢٠	-	-	شمع(٣)
-	٢	-	شمع(٤)
-	٤٠٠	-	حصير
-	٤٧٢٢	١٢	زيت زيتون
-	-	-	قناديل بللورية
-	٣٠	-	شمع العسل(٥)

ما هو مقرر أن يرسل من الشام الشريف

الدرهم	الأوقية	عدد	صندوق
-	٤٩٤١	-	زيت الزيتون
-	-	٨	الشمع الأبيض(٦)

(١) مقدار كل مجموعه ثلاثة وأربعون شمعة.

(٢) زنة كل شمعة أوقية واحدة.

(٣) كل منها ٥ أوقيات مجهزة تجهيزا آخر وهى من وقف عباس باشا.

(٤) شمع محراب سليمان مجهز تجهيزاً آخر.

(٥) تزن سبع من هذه أوقيتين والباقى أوقية ونصف.

(٦) خاص بضريح سيدنا عباس وحمزة والمحراب السليمانى.

مقدار الزيت المقرر للحجرة المعطرة

وداخل الحرم الشريف وسائر المساجد فى كل شهر

زيت زيتون أوقية[1]	زيت زيتون أوقية[2]
٦٩٨ للحرم الشريف	٩٨٩ للحرم السعيد
والحجرة المعطرة	١١١٦ لمآذن الحرم السعيدة
٢٢٣ للمساجد	٢٠٤ مآذن المساجد الأخرى
١٧ للفقراء المحتاجين	١٨ لساحة الحرم السعيدة
٩٥٦ المجموع	٢٥٦٧ المجموع

● الشموع الكافورية الممنوحة للمساجد التى كتبت أسماؤها فيما يأتى بناء على شرط الواقف على أن تكون كل شمعة أوقية ونصف أوقية وعلى أن يعطى كل ثلاثة أشهر.

عدد الشموع	
٢	للمسجد النبوى
٢	لمسجد سيدنا أبى بكر الصديق
٢	لمسجد سيدنا عمر الفاروق
٢	لمسجد سيدنا عثمان بن عفان
٢	لمسجد سيدنا على المرتضى
٢	لمسجد سيدنا عباس
٢	لمسجد قباء
٢	لمسجد بلال الحبشى
٢	لمسجد الشيخ السيواسى
٢	لمسجد الشيخ الباخورى
٢٠	المجموع

(١) خاص بالأيام العادية.

(٢) خاص بشهر رمضان الكريم.

obeikandl.com

٤ شمعات صغيرة تقدم ثلاث مرات فى كل شهر إلى كل واحد من المحراب النبوى والمحراب السليمانى.

شمعتان كبيرتان لمحراب النبى يقدم كل سنة مرة واحدة.

ما يبخر فى الحجرة السعيدة والحرم الشريف

عنبر	شجرة العود	ورق معطر	بخور	
٨ درهم	٣٠٠ درهم	عدد ٤	٢١ دستة	لشيخ الحرم[1]
..	٢٥٧ درهم	..	..	ومن يقومون بالتبخير
٨	٥٥٧	٤	٢١	المجموع

توقد القناديل المعلقة فى الحجرة السعيدة من المساء إلى الصباح ويصرف لكل قنديل خمسة وعشرين درهما من زيت الزيتون، وتوقد فى داخل الحرم الشريف القناديل المعلقة من المساء إلى الثلث الأخير من الليل ومن الثلث الأخير من الليل حتى وقت صلاة الصبح، ويصرف لكل قنديل عشرين درهما من زيت الزيتون، وقد خصص لكل واحد من هذه القناديل ثمانية عشر درهما من زيت الزيتون، كما قيد فى الخزانة النبوية؛ ولكن استخدام مقياس لا يعرف له المقدار يظن أن مقدار هذا الزيت عشرون درهما، وتصرف ثلاثمائة وثلاث عشرة شمعة لتوقد فى الثريات والشمعدانات المعلقة فى داخل الحرم السعيد كل يوم بعد يوم، كما يوزع على بعض الأشخاص فى رمضان كل سنة عدد (١٠٤١) شمعة.

● وقد قرر إعطاء الأشياء الآتية عند غسل الحجرة النبوية المعطرة:

دهن الورد	عنبر	الورق المعطر	بخور	شجرة العود
درهم	درهم	عدد	دستة	درهم
١٧٠	٢	٧	١	٩٠

● مقدار ما فى الحجرة المعطرة والروضة المطهرة للنبى عليه الصلاة والسلام

(١) كل دستة تتألف من تسعة عشر عودا.

وفى داخل الحرم الشريف من الشمعدانات والثريات البلورية والقناديل البلورية على شكل كروى، والقناديل الزجاجية المعلقة فى المآذن.

ما يوقد بشمع العسل

الشمعدان

عدد

٢ شمعدان مرصع بالجواهر ومضنع فى غاية الجمال فى الحجرة المعطرة.

٢ كذلك مصنع من الذهب الخالص وكبير نوعا ما (فى الحجرة المعطرة).

١ كذلك مصنوع من الذهب وكبير نوعا ما[١] (فى الحجرة المعطرة).

٥ المجموع

كل هذه الشمعدانات ذات شمعة واحدة وتوقد صباحا ومساء فى داخل الحجرة المعطرة أمام سيد البشر فائض النور.

وإن كان فى الحجرة السعيدة عشرة أعداد من الشمعدانات الفضية إلا أنها توقد فى ليالى رمضان.

الشمعدان

عدد

٢ خاص بالشمعدانات الكبيرة لمحراب النبى.

٢ خاص بالشمعدانات الصغيرة لمحراب النبى[٢].

٢ خاص بالشمعدانات الكبيرة للمحراب السليمانى.

٢ خاص بالشمعدانات الصغيرة للمحراب السليمانى.

٨ المجموع

هذه الشمعدانات الثمانية ذات شمعة واحدة وتوقد كل الليالى.

(١) فى مرقد السيدة فاطمة رضى الله عنها.

(٢) الشمعدانان الكبيران الخاصان بشموع محراب النبى ﷺ مصنوعان من الفضة الخالصة وهما من هبات والدة السلطان (بزم عالم).

الشمعدان المصبوب ذو الفانوس

عدد

٨ هذه الشمعدانات ذات شمعة واحدة وتوقد كل ليلة فى داخل الروضة المطهرة.

الشمعدان البلورى

عدد

١ فى الروضة المطهرة النبوية وهو ذو ثمان وعشرين شمعة.

٢ كذلك فى الروضة المقدسة النبوية ذو ثمانى وعشرين شمعة أيضا.

١ أمام المحراب السليمانى وهو ذو إحدى وثلاثين شمعة.

١ موضوع فوق كرسى ذى أرجل ثلاث وثمانى شمعات وأهداه الغازى الهندى متبركا.

٥ المجموع

توقد هذه الشمعدانات بالشمعات البيضاء.

الثريات البلورية

عدد

١ معلقة فى الحرم الشريف وذات حجم كبير يوقد فيها أربع وسبعون شمعة.

١ معلقة فى جهة القدم الشريفة وكبيرة ذات أربعة وعشرين شمعة[١].

٢ معلقة أمام المحراب السليمانى وذات ست عشرة شمعة.

٢ معلقة أمام المحراب السليمانى وذات ست عشرة شمعة كذلك[٢].

١ معلقة فى الروضة المطهرة ذات شمعة واحدة[٣].

١ معلقة أمام باب الوفود وذات شمعة واحدة[٤].

٨ المجموع

كل هذه الثريات توقد بالشمع الأبيض كل الليالى.

(١) من هبة والى مصر السابق عباس باشا للتبرك.
(٢) هذه الثريا على شكل الشجرة.
(٣) هذه الثريا حمراء.
(٤) هذه الثريا على هيئة الشجرة، هى الأخرى.

obeikandi.com

الثريات الفضية

عدد

٢ معلقة أمام الحجرة المطهرة وفى داخل الحرم الشريف[١].

١ معلقة أمام الحجرة المطهرة وفى داخل الحرم الشريف[٢].

١ معلقة أمام الحجرة المطهرة وفى داخل الحرم الشريف[٣].

٤ المجموع

توقد هذه الثريات الأربعة كل الليالى.

الثريات البلورية

عدد

٣ هذه الثريات من هبات والي مصر الأسبق عباس باشا تبركا[٤].

١٥ قدمت من بعض أصحاب الخير[٥].

١٦ قدمت من بعض أصحاب الخير[٦].

٣٤ المجموع

كل هذه الثريات الأربعة وثلاثين توقد بالشمع الأبيض.

الثريات الفضية

عدد

١ معلقة أمام المحراب العثمانى ومهديها مجهول.

١ معلقة أمام القبة العثمانية وذات ست وثلاثين شمعة مهداة من السلطان محمود.

١ معلقة أمام الحجرة المطهرة وذات ست وثلاثين شمعة مهداة من السلطان محمود.

٢ معلقة أمام الحجرة المطهرة وذات شموع مهداة من السلطان محمود.

١ معلقة أمام الحجرة المطهرة وذات شمعتين ومهداة من السلطان محمود.

٦ المجموع

توقد الثريات الستة كلها بالشمع الأبيض ليلا.

(١) هذه الثريا مهداة من والدة السلطان (بزم عالم) وتوقد بالشمع الأبيض.

(٢) هذه الثريا الفريدة مهداة من السلطان نائلة وتوقد بالشمع الأبيض.

(٣) مهداة من والى مصر الأسبق المرحوم عباس باشا وتوقد بالشمع الأبيض.

(٤) هذه الثريا على شكل نخلة وقطعة واحدة من البلور.

(٥) توقد كل الليالى.

(٦) توقد فى ليالى الجمع فقط.

obeikandl.com

الثريات البلورية

عدد	
١	ذات اثنين وثلاثين شمعة وهبها المرحوم رضا باشا للتبرك.
٢	ذات أربعين شمعة حمراء اللون واقفهما مجهول.
١	ثريا ذات طراز هندى ولا يعرف واقفها.
٤	المجمـــوع

وإن كانت هذه الثريات معلقة فى داخل الحرم الشريف إلا أنها لا توقد لعدم إرسال الشموع.

- مقدار القناديل التى تسرج وهى على شكل كروى ومن الزجاج

عدد القناديل

٧٠	البلور ذات السلسة الذهبية كروى الشكل.
٢	الزجاج ذات سلسلة ذهبية.
١٠	شمعدان من الزجاج فى الشجرة الفضية.
٨٤	المجمـــوع

إن هذه القناديل فى داخل الحجرة المعطرة وتوقد كل ليلة وسلاسلها كلها من هبة الخاقان محمود عدلى رحمه الله تعالى.

- **القناديل الزجاجية لمآذن المسجد السعيد**

عدد	
٢٢٧	فى المئذنة الرئيسية
٣١٢	فى المئذنة العزيزية
٢٢٨	فى المئذنة المجيدية
١٨٦	فى مئذنة باب الرحمة
٢١٦	فى مئذنة باب السلام
١١٦٩	مجموع عدد القناديل

obeikandl.com

- **القناديل المعلقة بالحرم وخارجه**

٤٥٢	كروى الشكل له سلاسل فضية صفراء
١٦	كروى الشكل له سلاسل عادية ومعلق فى باب الحرم الشريف[١]
٨٤	زجاجى فى الثريات على شكل الشجرة ومعلقة فى داخل الحرم الشريف
٢١	زجاجى فى داخل الحرم السعيد وفى اللوحات المزينة
٢٤	زجاجى معلقة على الأطراف الأربعة الخارجية للحرم الشريف
١١	زجاجى معلق فى أماكن أخرى
٦٠٨	مجموع عدد القناديل.

عدد الشمعدانات والثريات والقناديل من حيث المجموع:

عدد	
٣٥	الشمعدان
٦٠	الثريات البلورية مع الشجرة الفضية
١٨٦١	قناديل زجاجية على شكل كروى.
٢٤٣١	مجموع القناديل والشموع كلها.

عـين زبيـــدة

من مآثر السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد خان (عليهم الرحمة والغفران) ومن خيراته العظيمة تعمير مجرى عين زبيدة وإحيائها.

وإن كان فى مدينة مكة المكرمة بعض السبل للماء الذى جلبته عين السيدة «زبيدة» من جبل المُشَلَّل وكذلك بعض الآبار يمكن شرب مائها إلا أن أهل مكة كانوا يعانون من قلة تلك السبل والآبار ذات المياه العذبة، إلى أن أجرى السلطان سليمان مياه عين زبيدة فى داخل مكة المعظمة.

(١) إن هذه القناديل معلقة فى داخل الحرم الشريف كل الليالى وهى مهداة من ساكن الجنان السلطان محمود للتبرك.

عين زبيدة: هى الماء الزلال الذى أجرته ـ كما سيذكر فيما بعد ـ السيدة أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور زوج هارون الرشيد، بإنفاق مبالغ طائلة من واد يبعد ثلاثة أيام إلى مدينة مكة الله الشهيرة، إلا أنها أهملت بعد تطهيرها فى سنة (٩٢٦) بإهمال طرقها، ومجاريها آلت إلى الخراب وضاع ذلك الماء الذى تقوم عليه الحياة.

وكان ذلك الماء المذكور فى غاية الغزارة والعذوبة وكان يشبه ماء تقسيم[١] فى إستانبول، وإن كان اسمه عين عرفات؛ إلا أنه أطلق عليها عين زبيدة اعترافا لما بذلته السيدة زبيدة من همة عظيمة لجلبها.

كانت السيدة زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر الذى يقال له جعفر الأكبر وحفيدة أبى جعفر المنصور ثانى الخلفاء العباسية وبنت عم زوجها هارون الرشيد وكانت شهرتها القديمة «أمة العزيز»، وكانت اعتادت فى صغر سنها أن تؤنس جدها بالرقص أمامه، وسماها المنصور بهذا الاسم قال لها يا ابنتى إنك زبيدة فعرفت بهذا الاسم. إن السيدة زبيدة الممدوحة كانت امرأة ذات مناقب جليلة ومآثر ممدوحة وصاحبة بر وإحسان، وقد جلبت عين حنين وأوصلتها إلى مكة المفخمة بعد أن أنفقت أموالا طائلة وخزائن وفيرة وذلك فى سنة ٢١٣ الهجرية، إن مدينة مكة المكرمة المفخمة تقع بين سلسلة جبال سوداء جرداء خالية من المياه الجارية وفى واد غير ذى زرع غير صالح للزراعة، لذا كان سكان حرم الله يديرون أمورهم بمياه الأمطار، ويعانون غالبا من مشكلة قلة المياه وذلك قبل إحياء عين حنين. ويقول المؤرخون إن السيدة زبيدة قد أنفقت (١٧٠٠٠٠٠) مثقال ذهبًا[٢] وأمرت بنقب جبال حنين الراسيات وجمعت المياه فى سفح الجبل الواقع فى ساحة (منى) أرض الحل، وهكذا أروت حرم الله وأزالت منه العطش.

حكايـة

بعد أن أجريت المياه إلى مكة ومهدت طرقها وصارت رصينة منيعة، وتم عمل

(١) اسم حى من احياء استانبول.
(٢) يساوى (٢٥٥٠٠٠٠) درهم ذهبا.

كل شيء على أحسن ما يرام، أراد أحد الموظفين الذين كانوا يعملون فى هذا العمل الخيرى أن يعرض كل ما أنفق فى هذا العمل مقيدا الحسابات فى دفتر، وقدمه للسيدة زبيدة راجيا أن تلقى نظرة لتسوية الحساب وهى فى قصرها المبنى على نهر دجلة، فأخذت الدفتر وألقته بين المياه، واستدعت الموظف المذكور وقالت له تركت تسوية حساب هذا العمل إلى يوم الحساب، إذا كان هناك فى ذمتك بعض المبالغ فإننى تنازلت عنها كهدية، أما إذا كان لك طلب فقله شفويا حتى أؤديه لك، ثم ألبست الموظف ومن معه حلة فاخرة وطيبت خاطره «انتهى».

قد اتفق جميع المؤرخين على أن تلك السيدة العظيمة صاحبة العصمة قد أجرت المياه إلى مدينة مكة المكرمة من مسافة تبعد ثلاثة أيام منها؛ إلا أنه من الثابت أن السيدة زبيدة قد غادرت أرض الفناء، واتجهت إلى حجرتها المفروشة بالإستبرق[1] وذلك فى سنة (٢١٢) وظل ذلك العمل ناقصا إلى عهد السلطان سليمان بن السلطان سليم.

ولما آل الأمر إلى السلطان المشار إليه بذلت كريمة السلطان السعيد الحظ مهرماه بعون والدها كل جهدها لإتمام ذلك العمل، وأوصلت المياه إلى مكة المكرمة. وبنت عدة عيون فى المسعى الشريف وبهذا أحيت أهالى مكة المكرمة بلد الله الأمين كما سيوضح فيما يأتى.

وبناء على هذا فإن قصة تقديم دفتر المحاسبة إلى السيدة زبيدة لا أصل لها فهى مختلقة.

إن منبع ماء حنين الذى أجرته السيدة زبيدة إلى مكة فى سفح جبل «ثنية» إلى جبل «طاد» العاليان أشد العلو والواقعان فى طريق الطائف. ويفيض هذا الماء من منبعه نحو حقول قرى حنين، وبعد ما يروى نخيل القرى الواقعة على طرفيه يستمر فى جريانه إلى أن يصل إلى حائط حنين[2]. إن السيدة زبيدة اشترت كل

(١) يعنى توفيت. وهى جملة المقصود بها الدعاء للمذكورة أن يسكنها الله الجنة.

(٢) يطلق على الوادى الذى يشمل قرى حنين وبساتينها «حائط حنين» وقد وقعت غزوة حنين الجليلة فى الصحراء المفزعة التى تنتهى عند البساتين المذكورة.

حقول تلك القرى ومنعت زراعة تلك البساتين، وأقامت على الأماكن المناسبة من الجبال التى حولها سدودا متينة وحفرت مجارى لانتقال مياه الأمطار من سد إلى سد، وتمتلئ تلك السدود بمياه الأمطار وتتحول إلى نهيرات صغيرة مثل عين حنين، وتجرى بواسطة المجارى والقنوات حتى تصب فى أنهار مشاش، ميمونة، غفران، برود، طارقى، ثقبه، وخزيان، وكلها تتجمع فى مجرى وادى حنين الواسع، ومن هنا إلى خزان «بئر زبيدة» التى حفرت فى صحراء منى. وبعد ما أجرت السيدة زبيدة عين حنين إلى منى أوصلت ماء وادى النعمان إلى عرفات، ثم جمعت مياه حنين ومياه وادى نعمان وأجرتها إلى البئر العميق الكبير عن طريق جبل ضاب[1] الكائن خلف المأزمين بطريق المزدلفة وعاد والمرسلات من خلف جبل من جبال صحراء منى، وهذا الماء يجرى من جبل كرا (يقال له جبل قرى أيضا) إلى ساحة عرفات بواسطة المجرى الكبير الواسع المصنوع، ويملأ أحواض جبل الرحمة ثم يملأ خزان بئر زبيدة الذى سبق ذكره.

قد اتخذت بئر زبيدة خزانا ومقسما لمياه عرفات وحنين: لأجل ذلك غطيت بصخور عظيمة ليس فى قدرة الإنسان نقلها أو تقليبها من جهة إلى أخرى، وذلك لتفادى أذى عربان البادية وتأمينها من أضرارهم.

إن الماء الذى جلب من وادى النعمان ينبع من سفوح الجبل الذى عرف بين الأهالى (بجبل قرا) أو (كدا) أو (كرا) إن هذا الجبل قائم فوق جبلين فى ارتفاع جبل الرحمة" لذا فهو بالغ الارتفاع والمساحة من قمة هذا الجبل إلى الطائف نصف يوم. إن الذين يصعدون على هذا الجبل أو يهبطون منه مرة يبلغ بهم التعب حتى لا يقدرون الصعود إليه أو الهبوط منه فى نفس اليوم. والماء المعروف بعين عرفات يجرى من صحراء النعمان ولذلك تجد الأماكن التى تجرى فيها تتأثر برطوبتها وتنبت أنواع الأشجار. وأقسام النباتات والأزهار فيما حولها وتتحول إلى رياض منتظمة.

(١) يطلق على هذا المكان الآن طريق المظلمة وهو يقع على يسار العائدين من عرفات إلى المزدلفة.

وبناء على ما ذكره المؤرخون الأعلام فإن طول المجرى الذى حفرته السيدة زبيدة يبلغ (١٤٣٠٣٨) قدما وأربع بوصات وقد صرف فى حفرها وتسويتها مليونا وسبعمائة مثقال ذهب كاملا كما سبق ذكره.

لطيفة

قد رأى أحد الصلحاء فى رؤياه السيدة[١] زبيدة فى رياض الجنة وقال لها «هل غفر لك لتوصيلك المياه إلى مكة المكرمة» فأجابت قائلة: «إن ما أنفقته من المبالغ لأجل الماء كانت من حقوق العباد وما حدث منها من الأجر والثواب وزع على أصحاب الحقوق، ولكننى كنت يوما فى مجلس الأنس والشراب فسمعت الأذان المحمدى، فتركت الشرب واستشهدت من خلف المؤذن، إن عملى هذا قد حاز رضا ربى الرحيم وقال مخاطبا الملائكة: «إذا لم يكن توحيد ألوهيتى راسخا فى قلب زبيدة لما أسرعت فى الاعتراف بوحدانيتى بترك مجلس الهناء والسرور فاشهدوا أننى رضيت عنها وغفرت لها «وبصدور هذا الخطاب الإلهى الجليل وصلت لما أنا عليه من مرتبة عالية وإننى الآن فى أحسن حال». هذا كان ردها للشيخ الصالح. انتهى «روح البيان».

وقد أنقذت السيدة زبيدة أهل مكة من ضائقة الماء، إذ أوصلت هذه المياه إليها وكذلك خدمت الحجاج الكرام خدمة عظيمة بهذا العمل الجليل.

إلا أن السيول التى تنهمر من الجبال قد خربت قنوات هذه المياه ومجاريها مع مرور الأيام، كما أن تقلبات الزمن وقلة الأمطار قد محت وخربت جميع الطرق وقضت عليها، وأجبرت سكان المدينة الشهيرة مكة المكرمة على أن يجلبوا الماء من أماكن بعيدة، كما أن مياه الآبار أخذت تنضب فى سنة ٢٤١ فأجهد الظمأ الناس أيما إجهاد، وفى أثناء ذلك أوصل الخليفة العباسى المتوكل المياه التى جلبتها السيدة زبيدة إلى عرفات إلى مكة المكرمة حافرا مجرى آخر، وبهذا نال الأجر والثواب وكأنه أحيا جيران كعبة الله من جديد[٢] إلا أن المجرى الذى حفره فسد

(١) إن المشار إليها توفيت عام (٢١٢) وعلى قول عام (٢١٦).

(٢) يروى أن المتوكل أنفق مائة ألف قطعة ذهب لجلب المياه إلى مدينة مكة المكرمة.

وخرب بعد مائتين وخمسين عاما، وهكذا ابتلى سكان بلدة الله مرة أخرى بالظمأ.

قد أصلح وعمر قنوات هذه المياه ومجاريها كل من الملك المظفر بن كوكبورى بن على فى عام (٥١٤) وصاحب أردبيل مظفر الدين فى سنة (٦٠٥) والمستنصر بالله العباسى عام (٦١٥) وفى سنة (٧٢٦) ملك العراق أبو سعيد خدابنده الأمير جوبان[1] وفى سنة (٨١١) الشريف حسن بن عجلان أمير مكة المعظمة وفى سنة (٨٢١) أبو النصر الشيخ محمود من ملوك الشراكسة وفى سنة (٧٧٥) السلطان قايتباى المصرى، وفى سنة (٩١٧) عمقها الغورى وطهرها كما أصلح مواضعها الخربة ونظفها وأنقذ أهالى مكة المعظمة الكرام من شح الماء إلى حد ما.

وبعد فترة تقلبت أحوال الزمان وتخربت مجارى المياه بأكملها وتوارى ماء حنين وعرفات الذى يشبه ماء الحياة فى ظلمات التراب؛ وكابد أهل مكة شح المياه إلى حد أنهم اضطروا فى أيام عرفات إلى جلب الماء من الوديان القاصية. وهذا واقع صحيح.

---

(١) بعد أن أصلح الأمير جوبان عين زبيدة، أصلح وسوى طرق ماء عين بازان كذلك وأدخل الماء إلى داخل مكة المكرمة فى عام (٧٢٦) ونعم أهل مكة بالرى حينما علم المؤرخ ابن الوردى إجراء عين بازان إلى مكة قال هذه الأبيات.

هل لى إلى مكة من عودة ... فابلغ السؤال وأقضى الديون

غير عجيب جرى عين بها ... فقد جرت شوقا إليها العيون

الأمير جوبان من أمراء الجنكيزية وأمير أمراء حاكم بغداد السلطان أبو سعيد بهادر بن السلطان محمد خان، وكان قد أحال إدارة البلاد التى تحت حكمه إلى أولاده ولكنه تنكر للأمير جوبان بتحريض من وزيره نصر الدين، وغضب عليه واطلع الأمير جوبان على غضب أبى سعيد من ابنه أو على خواجة دمشق الأثير لديه، ولكنه استطاع أن يعزل ذلك الوزير الغاش من منصبه مدعيا عدم لياقته لوظيفته، وقتل ابنه بعد مدة لتسوية الخلافات بين أرباب السياسة، فذهب إلى معسكر الملك ومعه جنود كافية وطلب من أبى سعيد بواسطة الشيخ علاء الدولة القصاص من قاتلى خواجة دمشق؛ إلا أن طلبه لم يقبل ودخل الحرب إلا أن جنوده تركوه منفردا، فترك الحرب وهرب ناحية خراسان والتجأ إلى غياث الدين والى هرات؛ لما له عليه من حقوق سابقة إلا أن علاء الدين قتله بناء على أمر أبى سعيد الصريح وأرسل نعشه إلى المدينة المنورة بناء على طلبه وذلك فى سنة (٧٣٠).

وإن كان جلب الماء من الوديان البعيدة التى تحيط بها المهالك والمعاطب اقتصر على السَّرَاة من أصحاب الثروات الطائلة فقد انصرفت طائفة الفقراء والمستضعفين عن طلب كسرة الخبز ولم يعد لهم من مطلب سوى الماء.

فضلا على استحواذ المحتكرين من الأثرياء على الماء الذى يجلبه السقاءون، وكانوا يبيعونه بباهظ الأثمان فأفعموا جعبة حرصهم وبخلهم.

وفى أواخر عام ٩٣٠ جرى قضاء الله بأن تنقطع كذلك مياه الأودية البعيدة ولذا بيعت القربة الصغيرة من الماء التى يمكن حملها بإصبع بدينار من ذهب، ووقف الموحدون فى ساحة السعادة فى جبل الرحمة وقد نال منهم الظمأ حد أنهم كانوا على استعداد للتضحية بأرواحم فى سبيل الحصول على الماء.

ولما بلغ شح الماء ذلك الحد لزم الحجاج ـ الذين أحرقت أكبادهم من نار الظمأ ـ والسكون يغمرهم الاستغفار وما كان إلا أن انتظروا نزول رحمة الرحمن الرحيم، وبدءوا يبسطون أكف الضراعة بدعاء الاستسقاء، ووقع دعاء الحجاج موقع القبول والاستجابة لدى ربهم، فانهمر المطر مدرارًا كما لم ينهمر من قبل وبصورة لم يسمع عنها الشيوخ من قبل، وجرى السيل تحت أرجلهم، وأخمدوا نار ظمئهم، وبعد أن ملأوا قربهم وسقوا حيواناتهم ودوابهم انخرطوا فى شديد البكاء.

وعندما نما إلى علم السلطان سليمان خان سلطان الزمان معاناة المؤمنين شح المياه واضطرابهم فى ساحة عرفات وتخرب مجارى المياه على النحو الذى أسلفناه أصدر أوامره بتطهير طرق عين عرفات وعين حنين وتسويتهما. وأسند هذه المهمة لمن يسمى مصلح الدين أفندى وهو من مجاورى بلدة الله، ثم أخطرت إمارة مكة المكرمة من قبل الباب العالى وأحضرت علامات الإمارة إلى مصلح الدين أفندى، وعهد إليه بالمهمة المذكورة بتفويض من السلطان عالى المقام.

وفى عام ٩٣١ بدأ مصلح الدين أفندى يعد العدة لتلك المهمة فطهر مجارى مكة وعمرها على خير وجه، ثم أصلح البرك والأحواض فى عرفات مكة

المكرمة وروى بالأجر سكان الحرم من عين حنين واشترى مصلح الدين أفندى طائفة من العبيد السود[1]، وركب سفينة من ميناء السويس وكانت قد أعدت ليمضى بها إلى الآستانة ليعرض على الباب العالى كيفية توظيف هذه الطائفة فى مهمة تطهير مجرى القنوات، ومات ـ رحمة الله عليه ـ غرقا فى عباب بحر القلزم.

بينما كان مصلح الدين أفندى يقوم بإصلاح مجارى عينى حنين وعرفات عين مهندساً وكاتبا يرأسهما ناظر، وذلك من أجل سرعة إصلاح أى جزء يلحق به الخراب من المجارى والقنوات، وبعد ذلك بنى قبة حجرية فوق موضع تفرع المجرى، ووضع ميزاباً من خمسة وأربعين لوحاً حتى إذا ما فنيت مياه أى لوح أو نقصت يعرف أن ثمة خراب قد لحق بمجرى تلك الناحية فيتم إصلاحه في الحال.

وبفضل الترتيب المذكور لم يتعرض أهل مكة لشح الماء لفترة وعلى الرغم من ذلك فإنه بعد وفاة مصلح الدين أفندى بما يقرب من ثلاثين عاما طغى سيل من جرائه تخربت أغلبية مواضع المجارى المائية، ومن ثم بدأت مياه الينابيع فى مكة فى النقصان، وبدأ سكانها الكرام يلقون التعب والمشقة بسبب شح الماء، وعندما رفعت الإمارة الجليلة لمكة الأمر إلى الباب العالى وتلقت الإمارة المذكورة الرد وأخطرت بالمواضع الواجب إصلاحها وتعميرها، وبعد الكشف والمعاينة استدعى شريف مكة أشرافها وأعيانها للتشاور، وقرأ عليهم الأمر الوارد من الباب العالى.

وعلى أثر ذلك اجتمع قاضى مكة عبد الباقى بن على المغربى أفندى ومتصرف جدة خير الدين بك وطائفة مثلهم من أرباب الدراية والمعرفة. وعقدوا مجلساً للتشاور وتبادلوا الآراء والمشورة بشأن طرق المياه مكة المكرمة، ومن بعد اتفقوا رأيا على أن عيون عرفات أبرك من باقى العيون، ومجاريها معلومة. وإذا ما

(١) اشترى مصلح الدين أفندى لكل واحد من هؤلاء العبيد السود جارية زنجية وزوجه منها، وعهد إلى ذريتهم بمهمة تطهير قنوات المياه، وكل العبيد يعيشون على مرتبات خصصت لهم بالقانون ولم يبق منهم أحد الآن بعد أن انقطع نسلهم.

نظرنا إلى ما أفاد به الخبراء فإن هذا الماء على الرغم من أنه ينبع من موضع يسمى «أوجر» يمر من منى عن طريق وادى النعمان وعرفات، ويحضر إلى بئر زبيدة. وإذا ما طهرت مجاريها وطرقها على الوجه الأقوم فإنه سيتكلف (٣٠,٠٠٠) دينار من ذهب، وقالوا إنهم سوف يقومون بتسوية وإصلاح وتنظيم ما يقرب من (٤٥,٠٠٠) ذراع معمارى فى وادى مكة وقد وقع هذا الرأى موقع القبول لدى هيئة الشورى، وعرضوا ما توصلوا إليه من قرارات على الإمارة المشار إليها مرفقة بتقرير.

ومن ثم عرض شريف مكة المذكور الصورة الأخيرة لما سيكون عليه المجرى بعد الإصلاح والقرار المذكور على الباب العالى وذلك على الوجه المفصل.

ولقد ورد التزام من كريمة السلطان صاحبة الخيرات، إكليلة المخدرات، تاج المحصنات بتعمير المواضع الخربة، وإجراء الماء داخل مكة، وإنشاء العيون فى المواضع القريبة من حرم الكعبة؛ وذلك لإحياء أهالى بلدة الله، ولأن ذلك عادة من المبرات السلطانية فقد صرف (٥٠,٠٠٠) دينار لإبراهيم بك دفتر دار (وزير مالية) مصر القاهرة الأسبق، وأرسل إلى مكة المكرمة، وفى يوم الجمعة الثانى والعشرين من ذى القعدة عام (٩٦٤) أو (٩٦٧) وقبل عام (٩٧٠) قدم إبراهيم بك إلى جدة، وفى اليوم التالى وصل إلى حضرة سيد حسن بن نمى شريف مكة فى وادى مر الظهران، ومضى فى معية المشار إليه إلى مكة وبعد الطواف نزل فى دار أعدت له خصيصاً.

وفى غضون خمسة و عشرة أيام وبفضل كثير من العمال بذل الجهد فى تطهير وتعميق الآبار التى غاض ماؤها ومجرى عين عرفات، وبعد الحج نصبت الخيام فى وادى عرفات من أجل تعمير طريق جبل الرحمة، واستخدم ما يقرب من أربعمائة عامل فى أعمال تنظيف المجرى، واستقدم إبراهيم بك مهندسين أكفاء وكثرة من البنائين وزاد من عدد العمال يومًا بعد يوم، وأصلح المجارى حتى بئر عين زبيدة، ولكنه لم يستطع أن يعثر على المجرى القديم الذى يمتد بعد بئر عين زبيدة.

وكان العمال الذين استخدمهم (إبراهيم بك) عددهم أربعمائة نفر من جنس العبيد وكانوا يصلحون لعمليات الحفر فعمقوا وطهروا مجارى العيون من (أوجر) إلى حدود (المزدلفة ولما كانت عمليات الحفر بعد (المزدلفة) أشق طلبوا مزيدا من العمال وأبلغ إبراهيم بك عدد العمال إلى ألف وبذل جهودا جبارة وأظهر مروءة عظيمة، وأنفق أكثر من ألف قطعة ذهبية، إلا أن العمل أخذ يتأخر يوما بعد يوم ويتباطأ، ولما رأى أن حفر وتعميق المجرى الكائن بين المزدلفة ومكة المكرمة فى حكم المستحيل، عرض الأمر إلى الجهات العالية، واستقدم من صعيد مصر والشام وحلب واليمن وباب السعادة إستانبول عمالا متخصصين فى حفر الآبار ومجارى المياه والحدادة والبناء ووزع لكل واحد منهم عمله لإجراء التعميق، إلا أنه فهم أن مجرى الماء ينتهى عند بئر زبيدة وراح فى تفكير عميق فى الندامة والحيرة؛ لأن السيدة زبيدة لم تستطع أن تحفر مسافة ألف ذراع معمارى بعد البئر الذى ينسب لها فتركته وأجرت مياه عرفات إلى مجرى حنين ووحدت بين الجدولين، واستطاعت أن تدبر مقدارا من المياه يكفى لأهل مكة ولم توحد بين عين عرفات ومجرى عين حنين بتغيير مجراهما؛ كان عليها أن تنشغل بنقب وثقب قطعة واحدة من الصخرة التى يبلغ طولها ألف ذراع معمارى وعرضها مع عمقها خمسين ذراعا.

وكان فى هذا إنفاق للمال عبثا، وأكد فكرة أن إنجاز هذا العمل خارج طاقة الإنسان ولأجل ذلك تركت ذلك المكان، وقررت أن توجد بين مجرى عرفات ومجرى مياه حنين وتوصلت إلى هدفها عن طريق أوفق لغايتها.

وأراد إبراهيم بك من شدة حيرته واضطرابه أن يقوم بعمل لم تستطع أن تقوم به السيدة زبيدة، وتخيل أنه يستطيع أن يثقب ذلك الطريق الحجرى بطريقة أو بأخرى فحفر أولا وعمق مكانا ليبلغ طوله سبعة أذرع وعرضه خمسة أذرع وأمر برفع ما عليه من التراب، ثم جلب من جبل جزل حمل مائة بعير من الحطب وأراد أن يعمق بحرق الحطب فى داخل ما تم حفره ما مقداره خمسين ذراعا إلا أنه لم يستطع أن يحفر فى ليلة كاملة إلا مقدار إصبعين كسره بأدوات حديدية،

وأدرك أن تعميق مكان طوله ألف ذراع مقدار خمسين ذراعا يحتاج إلى عمر نوح ومال قارون، إلا أنه أنفق أموالا لا تحصى بفكرة إنقاذ الشرف السلطانى الساذجة، ولم يبخل من بذل أقصى الجهود لحفر المجرى إلا أنه لم يستطع أن يتجاوز أكثر من عشرين ذراعا، وفى النهاية أنهى جميع نقوده وأرسل إلى باب السعادة رسلا لعرض الأمر وليستأذنه فى كيفية التصرف بعد هذا الفشل، ولكن الرسل الذين بعثهم إلى إستانبول غرقت سفينتهم فى البحر الأحمر، وفى هذه الفترة مات ثلاثة من أبنائه واحدا تلو الآخر، كما مات وكيل أعماله وكثير من عبيده وعقب ذلك ارتحل أيضا إلى قصور الجنة سنة (٩٧٤) ليلة الاثنين الثانى من رجب ودفن فى قبره الذى كان قد هيّأهُ قبل وفاته[١].

وبعد وفاة (إبراهيم بك) عهد إلى قاسم بك حاكم جدة بمهمة تطهير المجرى ولحكمة ما توفى هو أيضا بعد مرور سنتين من تعيينه، فأحيلت تلك المهمة المقدسة لمفتى مكة المكرمة الشافعى القاضى حسين أبى بكر الحسينى.

وقد قام الشيخ حسين بمهمته أحسن قيام واستطاع أن ينهى عمله في ظرف خمسة أشهر على أحسن وجه وأنجز ما لم يستطع أن يقوم به من سبقوه فى اثنى عشر عاما.

واستطاع أن ينهى العمل الذى بذل فيه الجهود الحميدة منذ عهد السلطان سليمان خان الغيور على دينه، أى العمل الذى استغرق سبعة عشر عاما فى الحفر والتعميق وأوصل عين عرفات إلى مكة المكرمة وبإمرارها من نفس الطريق الذى أراده المرحوم إبراهيم بك وذلك فى سنة (٩٧٦) على قول أو سنة (٩٧٩) على قول آخر، أو فى الأيام العشرة الأخيرة من ذى القعدة سنة (٩٨١) وفقا للرواية الثالثة.

وأنشأ فى داخل المدينة أحواضا كبيرة وصهاريج عظيمة وملأها بالماء، وأحيا العالم الإسلامى، إن العمل الذى بدأ لإنشاء مجارى المياه وقنواتها فى عهد

(١) وبناء على هذا فالقول الأول وهو المعتبر أن إبراهيم بك شغل بحفر المجرى عشر سنوات، وعلى القول الثانى خمس سنوات وعلى القول الثالث أربع سنوات.

السلطان سليمان انتهى فى عهد السلطان سليم، وغبطت بلدة الله بكثرة مياهها، ودخل ماء عرفات فى داخل المدينة، وروى الحجاج العطاش وأخذ أهالى مكة المكرمة والمجاورون ذوى الاحترام يحتفلون، ويحث بعضهم البعض على الدعاء بالخير للسلطانين المشار إليهما ويقولون: إن الأعمال الخيرة الجميلة التي لم يقدر على القيام بها أى واحد من السلاطين السابقين والخلفاء المعتمدين، قد قدرت ويسرت لهذين السلطانين العظيمين.

وفى اليوم الذى وصل فيه الماء إلى المدينة المقدسة مكة الله أقام المفتى السابق الذكر حسين بن أبى بكر الحسينى فى رياض الأبطح لجميع الأهالى وليمة عظيمة، وذكر جهود السلطان وفتح صنابير جميع الينابيع وملأ مستودعات مياه الينابيع بحلو الشراب وسقى الأهالى، واستجلب الدعوات لطول بقاء الدولة العثمانية.

ومما يروى عن ثقة أن الأطعمة التى قدمت فى هذه الوليمة كانت عظيمة وافرة إذ نحر مائة جمل ومثلها من الأغنام، وأقيمت الخيام لجلوس القوم كل حسب مكانه وشرفه ودعا إليها أعيان القوم وأشرافهم وعلماءهم وصلحاءهم، وقدم لهم الطعام وبعد الطعام ألبس المهندسين ومهرة العمال الخلع، ووزع على الآخرين العطايا السنية وأبلغ بكل ما تم عمله لجلب قلوب الناس إلى السلطان الموصوف بمكارم الأخلاق، فما كان من السلطان إلا أن أرسل الخلع الفاخرة وعطايا كثيرة من إستانبول لتوزيعها على الذين خدموا فى توصيل العين المذكورة بجد وصدق من الأهالى. أما المفتى الشافعى القاضى حسين بن أبى بكر الحسينى المشهود له عند الجميع بجهوده العظيمة وعظيم بلائه فقد كرم أعظم تكريم مما ملأ قلبه بالعظمة والسرور، وفى حقيقة الأمر إن أهل مكة كانت حاجتهم شديدة إلى ماء جار مثل عرفات؛ لو لم توصل كريمة السلطان مهرماه عين زبيدة إلى مكة المكرمة لما بقى لأهل مكة إلا واحدا من الحلين الاثنين: إما أن ينتقل أهل مكة إلى بلاد أخرى يهاجروا إليها، وإما أن يتحدوا جميعا ويصرفوا كل ما فى جهدهم ليطهروا مجرى عين زبيدة والعمل على جلبها من جبل الرحمة.

ولما كان الحل الثانى غير قابل للتنفيذ بل مستحيلا كان عليهم أن يبتلوا بالفراق عن الوطن وأن يتفرقوا فى بلاد شتى وأن يحترقوا بنار فراق كعبة الله ثم يفنوا.

وجلب ماء عرفات إلى الحرم الشريف رد الحياة لأهل مكة وذريتهم فبقوا فى موطنهم القديم، والآن ما من أحد فى مكة إلا وقلبه يمتلئ غبطة ومسرّة ولسانه يلهج داعيا بالبقاء للدولة العثمانية.

فيما يلى من كلامنا وصف لماء عرفات من حيث صفائه وعذوبته ومدى حاجة أهل مكة لهذا الماء، وهذا ما جعل هذا الأمر موضع بر الأميرة مهرماه وإحسانها بين المحسنين.

مقال

إن ماء عرفات ماء جار كأنه ماء الكوثر وعين الحياة وماء تسنيم، ويجرى بالقرب من موقف عرفات ويبحث عن حرم مكة العطشانة ليمسح وجهها ويطفى ظمأ أهل مكة المشتاقين بمائه الزلال.

أبيات

إن رغبة أهل هذا البلد إلى الماء الجارى لأمر عجب
ما أن يشاهده الظمآن منهم إلا وجرى ريقه.
فأجرت الأميرة (مهرماه).
بنت سلطان العالم السلطان سليمان خان.. صاحبة الخيرات
هذه العين إلى داخل المدينة.. منفقة الأموال الطائلة.
وهكذا سقت المسلمين العطشى.
والحق أن ما قامت به من همة عظيمة.
ليغار عليها خلفاء سكان المغرب ودار السلام.
وحكام اليمن وسلاطين مصر والشام

وفـــى نـــار الحيـــــــرة يحترقـــــــون..
ولقـــد أســـــدت خدمـــــة عظيمـــــــة.
تجعـــل ملـــــوك الربـــــع المسكـــــون..
مـن العالـــم وملـــوك سوالـــف القـــــرون..
مـــن رغبتهـــم فـــى لجـــــة يغرقـــــون
واستهـــل العمـــــل فى سنـــــة ٩٧٠[١].
ومـــع الاستعانـــة بالمهندســـين المعامريـــن
الذيـــن يتمتعـــون بذهـــن ثاقـب وذكـــاء خـــارق
الذيـــن حطمـــوا الصخـــور الصمـــاء
بهمـــة كأنهـــا فـــأس فرهـــاد.
وأنهـــوا العمـــل فـــى تسعـــة أعـــوام[٢]
وأنفقـــوا النقـــود كالمـــاء السائـــل
حتى ظهر ذلك الجدول الجميـل وكأنـه فضـة مذابـة.
شكـــر الله سعـــى مجريهـــا.

انتهى «ذيل الشقائق النعمانية».

وبما أن عين زبيدة احتاجت للتعمير والتطهير مرة أخرى فى عهد السلطان مصطفى بن السلطان أحمد سنة (١١٨١) بإشعار من إمارة مكة المكرمة فأرسل من قبل السلطنة السنية موظف يسمى فيض الله أفندى الذى طهر العين كما ينبغى، عمر وسوى الأماكن التى تحتاج للتعمير، وأنفق فى سبيل ذلك (٨٨٦,٠٠٠) قرش وأتم العمل فى ظرف ثلاث سنوات فى سنة (١١٨٤).

(١) بناء على القول الثالث.
(٢) بناء على القول الثانى.

إلا أنه فى تلك المدة لم يكلف بإصلاح مجرى عين زبيدة فقط بل شمل التعمير والإصلاح مجارى عين عرفات والعيون الأخرى، كما أصلحت مجارى جميع العيون الواقعة بين عين حنين وعرفات، وهكذا زادت المياه فى جميع المجارى.

ودام هذا التعمير أربعًا وخمسين سنة، وفى خلال هذه المدة لم يكابد أهل مكة من نقص المياه، ولكن فى عام (١٢٣٥) مست الحاجة إلى تعمير بعض العيون لما كان السلطان محمود خان أصدر الأمر إلى والى مصر محمد باشا بأن يبادر بإصلاح أى مكان فى الحرم الشريف دون استئذان منه، فأصلح الباشا المذكور مجارى المياه التى تحتاج إلى إصلاح وأحيا عين زبيدة من جديد، وأبلغ الأمر إلى باب السعادة سنة (١٢٣٥).

وبعد تعمير محمد على باشا قد انضمت إلى مجرى عين زبيدة مياه عين أخرى يقال لها زعفران، ولهذا زادت مياه عين زبيدة وكان ذلك بهمة زائر هندى كريم من أصحاب البر والإحسان يقال له «الماس أغا» وشرع هذا الرجل فى حفر بئر بالقرب من مجرى عين زبيدة، وعمق البئر حتى يزيد من مياهه بينما هو يعمق هذا البئر ظهر مجرى ماء تحت التراب، فسماه عين الزعفران وأجراها إلى مجرى عين زبيدة، فوحد بين الماء وبين ذلك البئر سنة (١٢٦٣).

وأهمل ما رممه وجدده محمد على باشا والى مصر تحت رعاية السلطان محمود خان، وفى غضون خمسة وثلاثين عاما وتهدمت عدة مواقع مما جدد ورمم، وظهرت مشكلة ندرة المياه فى مواسم الحج، ولم يبلغ[1] الأمر إلى السلطان ومقام الخلافة الإسلامية، فبدأ أهالى الحرمين يتوجسون خيفة من انقطاع ماء عين زبيدة كلية؛ إلا أن أحد الزوار الهنود من قبيلة ميمن وهو «الشيخ عبد الرحمن سراج» طهر وعمر ذلك المجرى مستخدما مائتى نفر يوميا فى ظرف شهرين، وهكذا نفث عن الناس كربتهم وذلك عام (١٢٩٥).

(!) لأن خزينة وزارة الأوقاف السلطانية كانت تصرف كل سنة مقداراً غير قليل من النقود.

وبما أن الشيخ عبد الرحمن سراج كان محبا للخير لم يقتنع بتعمير وتطهير مجرى عين زبيدة؛ بل امتد عمله إلى إجراء زمزم الشريف الذى كان يستعمل فى داخل الحرم الشريف إلى محل بعيد عن الحرم، لأن المجرى الكبير المديد الذى أنشئ فى صدر الإسلام أصابه التلف والخراب مع مرور العصور، فرممه على أحسن وجه وعمره، ثم عمر وسوى الأماكن التى فى حاجة لذلك فى خارج الحرم وداخله وبهذا خدم الجماعة الإسلامية أعظم خدمة.

وكان الشيخ عبد الرحمن سراج كما يروى يشرف بنفسه على العمال، وكان يرجوهم أن يقوموا بأعمالهم على أحسن وجه حتى يتم العمل فى متانة ورصانة ويوصيهم بذلك، واستطاع أن ينتهى سواء من مجرى زمزم أو المواقع الأخرى فى ظرف ثلاثة أشهر أو أربعة مستخدما يوميا ما بين مائتى عامل أو ثلاثمائة منهم.. ألا فليرض الله ـ سبحانه وتعالى ـ عنه وليوفقه فى القيام بأعمال خير أخرى.

وبعد سنتين من إصلاح الشيخ عبد الرحمن سراج الهندى للمجرى المذكور قدم غنى أفندى من حكام الولايات فى الهند مبلغاً قدره (٤٠٠٠) ليرة عثمانية وذلك من أجل إتمام تعمير وتعميق المجرى المذكور، وقد حفظ هذا المبلغ فى خزينة المديرية للإنفاق منه حينما تستدعى الحاجة وذلك فى عام ١٢٩٧.

آخر تعمير لعين زبيدة

وقد رمم مجرى عين زبيدة فى عهد والى مصر محمد باشا كما سبق ذكره آنفا، إلا أن هذا التعمير كان جزئيا يشبه إصلاح الطرق هنا وهناك.

قد تهدمت مجارى الماء بسبب السيول التى تتعاقب بكثرة فى البلاد الحجازية نتيجة لخصائص جو هذه البلاد، واحتاجت إلى تعمير شامل ولكن انشغال أولياء أمور الدولة بهمومها المتوالية حال دون الاهتمام بمصالح أمور الحجاز لذا لم يعمر مجرى عين زبيدة فترة طويلة، وبقاء المجارى دون تعمير بعد تهدمها تدريجيًا وترك العقود والدعائم دون ترميم أدى إلى نقص المياه يومًا بعد يوم، وهى قوام حياة الأهالى.

ودب الخراب فى المجرى وتصدع فضاع الماء الذى تسرب من بين الصدوع والشقوق، ولو بقيت القنوات على تلك الحال فترة أطول سوف يؤدى ذلك فى المستقبل إلى ابتلاء أهل مكة بضيق شديد من قلة المياه، ولما أدرك الكل ما ينتظرهم عرضوا الأمر على مقام الخلافة، فجاء الأمر السلطانى بتكوين لجنة من أعيان مكة وجدة تعنى بتعمير مجرى عين زبيدة وتسويتها وترميمها، وعين لرياسة تلك اللجنة الشيخ عبد الرحمن سراج أفندى الذى كان عمر وأحيا عين زعفران بإنفاق مئات من الليرات الفرنسية وذلك فى المحرم سنة (١٢٩٦).

وكان من أهم ما كلفت اللجنة به تعمير ذلك المجرى بطريقة متينة ورصينة، وأخذ نفقات التعمير من خزينة الدولة ودون إحداث خلل عند الإنفاق، وبما أن الخزينة المالية للدولة تمر بأزمة حادة رأت تلك اللجنة ألا تكون حملاً على خزينة الدولة وأن تدبر أمورها على هذا الأساس، وكان الممولون المسلمون يتمنون من فترة أن يشتركوا فى تعمير عين زبيدة، وعلى هذا جمعت كثير من المعونات المالية من أهالى جدة ومكة بِحَثِّ اللجنة وسعيها الحثيث.

وأعطى الرئيس المذكور الشيخ عبد الرحمن سراج بمفرده خمسمائة روبية (٥٠٠٠ قرش) كما أن أصحاب الخيرات من الممالك الإسلامية أرسلوا معونات مناسبة لثرواتهم: فأرسل على خان[١] من ولاة الهند وحاكم (رانبور) (١٠٠٠٠٠) روبية وملكة (بهوبال) «السيدة جيهان بيكم» (٢٠٠٠٠) روبية والشيخ «عبد الغنى بهادر» من مشاهير أصحاب الخيرات وابنه «محمد أحسن الله» خان بهادر كل واحد منهما (٢٠٠٠٠) روبية وسيد عبد الواحد المقيم فى (كلكتا) ألفين وخمسمائة روبية[٢] وأرسلوا كل هذه المبالغ مع «الحاج نور محمد زكريا» وكيل صحيفة الجوائب فى الهند.

وهذه الإعانات من قبل حكام الهند الكرام غمرت نفوس أهل مكة بالبهجة والسرور، ولما وصلت الإعانة الهندية إلى جدة وكان مقدارها (١٦٣٥٠٠٠)

(١) قد أدى حضرة على خان فريضة الحج فى سنة (١٢٨٩)، وأحسن إلى فقراء المدينة ومكة بمبالغ كثيرة، وأهدى كتابا من تأليفه للحجرة المعطرة يحتوى على المدائح النبوية.

(٢) الروبية الواحدة تساوى عشرة قروش.

قرش وقد ذكر أعضاء اللجنة وجمع غفير من الأهالى المحسنين بالحسنى ودعوا لهم بكل خير أن اللجنة الخاصة التى تشكلت فى مكة للإشراف على إصلاح وتعمير مجرى عين زبيدة كما سبق ذكره أعلنت بمهمتها الجهات الأربعة من أقطار الممالك الإسلامية، وفى ذلك الوقت تشكلت فى مصر المعروفة برجالها المحسنين لجنة من وزارة المعارف المصرية، دبروا لها فروعا فى مديريات البلاد المصرية كما فعل مسلمو الهند، واستطاعت أن تجمع فى فترة قصيرة (١٥١٦٧) قطعة ذهبية مصرية وكسورا وأرسلتها إلى مكة المكرمة.

وهذه المبالغ هى مبلغ (٤٢٠٠) ليرة من مديرية الغربية و (١٦٠٠) ليرة من المنوفية و (١٢٢٦) ليرة من القليوبية و (٦٠٠) ليرة من قنا و (٧٨) ليرة من الجيزة والباقى من موظفى الدوائر الخديوية وأرباب الحمية من رجال القاهرة.

وبناء على الأخبار التى أعلنتها الصحافة المصرية أنه يؤمل أن تصل إعانة مديرية الغربية إلى (٥٠٠٠) ليرة كما أن المديريات الأخرى التى لم ترسل المعونات بعد ينتظر أن تصل منها معونات كثيرة.

وبناء على أخبار التحقيقات التى نشرتها صحيفة وقت فى نسختها الصادرة فى ٢٦ ذى الحجة سنة ٩٧ أن أهالى الهند المسلمين قد جمعوا إلى الآن مبلغ (٦٠٠٠٠٠) روبية ومازالوا يجمعون. وقد نشرت صحيفة حوادث مستقية أخبارها من صحيفة الوطن المصرية وبناء على الفقرات التى أدرجتها فى نسختى ٤٤٨٩ و ٤٥٠٣ أن المعونة الهندية وصلت إلى (٦١٠٠٠) قطعة ذهبية مصرية وأن رئيس الجمعية الهندية للمعونات عبداللطيف خان بعث ابنه إلى السويس لعقد مقاولة مع الجمعية المصرية للمعونات، كما أوفدت جمعية الإعانة المصرية أحمد ناشد بك إلى مكة المعظمة لتقديم النفقات اللازمة لتعمير عين زبيدة، وبناء على الرسالة التى بعثها أحمد ناشد بك الذي أرسل من إمارة مصر للتحقيق فى تعميرات عين زبيدة ونشرتها صحيفة الجوائب، أن المسافة من جبل عرفات الذى

فيه عين زبيدة إلى مكة المكرمة تبلغ ستة آلاف ذراع تقريبا، وقد عهد بإصلاح مجارى عين زبيدة فى هذه المسافة للمهندس[1] الذى عينته الجمعية.

أما المواضع التى أصلحت علاوة على ذلك فهى المسافة الممتدة من عرفات حتى وادى النعمان وقدرها (٣٣٥٠) ذراعا كما تم الاتفاق مع المهندس المذكور على أن تكون تكاليف كل ذراع ١٦ ريالا وثلاثة أرباع الريال، وقد أنجز تلك المهمة على الوجه الأكمل وكان ذلك فى ٢٩ رجب سنة ١٣٠٠هـ.

قد بلغ ما جمع من حجاج الهند وأهالى مكة وغيرهم من المعونات إلى هذا التاريخ مبلغ (٨٢١٦٨) قطعة ذهبية وأرسل (٦٧٠٠) قطعة ذهبية منها من صندوق بومباى.

وقد أنفق مبلغ (٥٥,٢٨٧) قرشا لإصلاح وتعمير مجرى عين زعفران التى ضمت لعين زبيدة وذلك بشرط أن يحسب الريال بثمانية وعشرين قرشا والليرة خمسة عشر قرشا والباقى من المبلغ صرف لطرق عين زبيدة وإصلاح مجاريها.

والسبب فى اضطرار اللجنة إلى إنفاق هذه المبالغ الطائلة من الدنانير الذهبية هو انسداد وانغلاق المنبع البالى لعين زبيدة، يعنى انسداد مجمع مياه وادى حنين ووادى النعمان وانغلاق ذلك المجرى الواسع وأيلولته للخراب.

إن ذلك المجرى يأتى إلى قهوة عرفات من تحت الأرض وعن طريق وادى النعمان، وبعد ذلك يجرى على وجه الأرض أحيانا ومن داخل الأرض حتى يصل إلى مجرى مغطى يسمى فقير الدبيلو «خومة وخاسرة» حتى يصل إلى قناة صناعية تسمى «بازان الجديد» وهنا يخرج على سطح الأرض ويمر بقناتين صناعيتين قنطرة العابدية والمزدلفة، ويصل إلى رقم الوبره ومنه إلى مفجرة وبعده بازان الجنة الواقعة فى منى وعقب ذلك إلى القناة الصناعية «بازان القاضى».

وبعد ذلك يهبط بحذاء دار الشريف عبد المطلب ويصل إلى مكة المعظمة، وإذا ما قيست هذه المسافة فهى تصل إلا ثلاثين كيلومترًا.

(١) هذا المهندس هو صادق بك ممن تولوا رتبة قائمقام الأركان الحربية.

وقد قسمت اللجنة أعمال إنشاء عين زبيدة وتعميرها إلى قسمين القسم الداخلى والقسم الخارجى.

القسم الأول: المواقع التى يعمر خارجها:

وقد بدئ فى تعمير هذا القسم من جهة وادى النعمان حتى المجرى. إن مقدار خمسة عشر مترا من المجرى المذكور قد هبط واندرس وانمحى، وبدأت اللجنة أعمالها من هناك وفتحت مجرى جديدًا يصل طوله لأربعمائة متر تقريبا، وأوسع من الأول ويسع داخله أن يمشى فيه إنسان ويتحرك، وبنى بشكل متين ورصين.

وبعد ما أنهت اللجنة أعمال المجرى على خير وجه أمر بفتح جميع أطراف المجرى ابتداء من وادى النعمان إلى قهوة عرفات. ومن هناك إلى جبل الرحمة ومن هنا إلى حومة وخاسرة وبازان الجديدة وقنطرة العابدية إلى المزدلفة، ومن المجرى أجزاء قد آلت إلى الخراب بحيث لا يمكن بقاء المياه فى داخلها فتركت هذه المجارى القديمة، وأمر بحفر مجارى جديدة كما أنها عاينت المواقع التى يمكن إصلاحها بعد أن أفرغتها من المياه وتفقدتها من الداخل ومن الخارج، «ثم أمرت بتعميرها واستخدمت الأسمنت فى تغطية جدران المجارى، وهكذا شيدته تشييدا رصينا.

ثم أمرت بتغطيتها بأغطية حجرية وفتحت فى بعض مواقع المجرى ما يشبه الأحواض حتى يستقى منها عربان البوادى، ويسقون دوابهم بعد أن أصلح المجرى حتى بئر زبيدة كما سبق شرحه.

فأخذت المياه تجرى فيه بغزارة حتى خربت بعض الأماكن الضيقة من المجرى، ورئى أن تفتح مثل هذه الأماكن وتوزع مياهها؛ ولأجل ذلك فتح بجانب مسجد المزدلفة وبين المزدلفة وعرفات حوضان عميقان للهبوط والصعود على جانبيهما، كما بنى منبع عظيم يهبط إليه ويصعد منه بالسلم وتركت الينابيع القديمة على حالها بعد تعميرها وتقويتها.

ونتيجة لإصلاح المجرى وتعميره بهذا الشكل أخذت تجرى إلى مكة فى كل دقيقة (٥٠٠٠) أوقية ماء وبما أن نصف هذه الكمية من المياه تكفى لإرواء كل أهالى مكة وسقيهم، فالمياه الباقية تجرى إلى بركة الأماجد حيث تكونت حولها بساتين شاسعة.

القسم الثانى: تعمير المواقع الداخلية:

أقيمت فى مكة تسعة صهاريج احتياطية وعدد من خزانات المياه ذات الصنابير، وشرع فى إنشاء الصهاريج الاحتياطية حيث أنشئ صهريج عظيم فى اتساع مائة وخمسون مترًا مربعًا، إن هذا الصهريج في حجم يكفى لاستيعاب (٤٤٧٠) أوقية من الماء بعد ما تم إنشاء هذا الصهريج، أنشئ صهريج آخر فى الحى المتصل بالموقع المسمى بالشيخ محمود يعنى فى حارة الباب، واتساعه أربعة وستون مترًا مربعًا، ويستوعب هذا الصهريج (٢٠٠٠) أوقية من ماء وبعد ذلك أنشىء الصهريج الذى فى حى جياد هذا الصهريج فى اتساع ٢٢٠ مترا مربعا ويستوعب (١٢٩٤٠٠٠) أوقية ماء وهو أكبر الصهاريج حجما، وبعد الانتهاء من صهريج جياد أنشئ عقب ذلك الصهريج الذى يسمى دكة الحارة المتصل بحى حارة الباب، وسطح هذا الصهريج فى اتساع ستة وثلاثين مترا مربعا ويستوعب (١٥٠٠٠٠) أوقية ماء ثم أنشئ الصهريج الذى فى حى الشامية باتساع (١٨٠) مترا مربعا ويستوعب صهريج الشامية (٢٦٠٠٠٠) أوقية ماء.

وبعد الانتهاء من بناء هذا الصهريج أقاموا صهريج شعب عامر، إن هذا الصهريج خلف مسكن السيد الشريف عون رفيق باشا وفى اتساع أربعة وثمانين مترا مربعا ويستوعب (٨٥٤) أوقية ماء.

وبعد إكمال صهريج شعب عامر أقيم خزان فى حى كشاشية على مساحة ثمانية وأربعين مترا وسعة هذا الخزان (٤٠٠٠٠٠) أوقية من الماء، وبعد ذلك أقيم خزان فى شعب بنى هاشم، وكان هذا فى حجم شعب عامر ويستوعب نفس الكمية من الماء، وبعد إقامة تلك الخزانات التسع المذكورة تهدمت خزانة

باب العمرة فأعيد تجديدها، وبعد ذلك أقيمت ثلاثة صهاريج كبيرة بجانب فرن أميرى الواقعة أسفل قلعة جياد، وسواء خزانة أميرى أو هذه الخزائن أنشئت علي طرفيها أحواض، وبنى تحت الأرض صهريج كبير ووضع في جهة المسعى خمسة عشر صنبورا متوسطا، ووضع فى جهة عمارة أربعة صنابير كبيرة ثم حفر وصنع حوضين ذوى فسقية واحدة بجانب مركز الشرطة الجديد وفى القسم السفلى منه والكائن فى باب الصفا.

وفى النهاية ركبوا فى جهة باب الصفا سبعة صنابير وفي جدران مكتبة شروانى محمد رشدى باشا الكائنة فى المدرسة التى تحت باب الصفا اثنين وعشرين صنبورا، وفى الجهة الخارجية من باب الوداع ستة وأربعين صنبورا، فى موقع قريب من باب العمرة عشرين صنبورا، وفى وسط المدرسة الداودية خمسة وعشرين صنبوراً، كما أنشئوا ستة أبنية ذات صنابير حجرية دائمة الجريان.

ولما كانت مبانى هذه الصنابير فى غاية الرصانة والمتانة فأهل الإيمان وهم يتوضئون منها فى الأوقات الخمسة، يرطبون ألسنتهم بالدعاء بازدياد قوة الإسلام وشوكته وعزته، وبعد ما انتهت عمليات تركيب الصنابير أُمِدَّ بالماء الخزان الكائن وسط العمارة المصرية التى وضعت أسسها فى مكان مواجه لباب الصفا، ومن هذا الخزان إلى الحوض ذو الفسقية بواسطة أنابيب رصاصية، أمدت مستشفى الغرباء بمقدار كاف من الماء بالأنابيب الحديدية من الخزان الذى أنشئ فوق سوق الليل، وركبت فى مطبخها وصيدليتها وحمامها ومغسل ملابسها صنابير كبيرة دائمة الجريان.

كما أنشئوا فى الحديقة التى يتنزه فيها المرضى حوضا، ومن هنا إلى عمارة السلطان الخاصة بالذين يعنون بالحدائق والبساتين، وحولوا تلك الأماكن إلى جنة وتحولت عين زبيدة الآن إلى نهر صغير فالمياه الجارية فى داخل مكة يضيع نصفها عبثا، وأوصلت اللجنة المجرى إلى حارة الباب المتصلة بالشيخ محمود، وأنشأت هناك صهريجا احتياطيا واستفاد أهل مكة من توصيل المياه إلى هذا المكان، وأخذوا

يبنون المنازل والدكاكين فى الأماكن الممتدة نحو ميدان الشيخ محمود، وقد تحولت تلك الضاحية من المدينة بعد وصول المياه إلى مدينة صغيرة مستقلة.

وبهذا قد أدركت اللجنة أن مكة الله ستتسع إلى تلك الأماكن ولذلك تقرر مد مجرى عين زبيدة إلى ميدان الشيخ محمود وشرع فورا فى تنفيذ ما هو لازم، وقد أنفقت (٧٥٠٠٠) قطعة ذهبية مصرية إلى أن وصلت عطيات الإنشاء إلى هذا المكان، إن تزيين تلك المدينة في جميع جهاتها على هذا النحو لم يكن بسعى من لجنة عين زبيدة فقط بل كذلك بفضل عثمان نورى باشا والى الحجاز والمهندس صادق بك.

المدارس الأربعة

التي أقامها السلطان سليمان

في مكة وكيفية إدارتها وتوجيهها

بعدما فرغ السلطان ـ طاب ثراه ـ من تعمير عين زبيدة بنى أربعة مدارس ضخمة خاصة بعلماء المذاهب الأربعة وأودع في كل واحدة من تلك المدارس خمسة عشر طالبا ومدرسا، وجعل أجر المدرس سنويا خمسين قطعة ذهبية عثمانية، وللمعيدين أربع قطع، وللطلاب والفراشين قطعتين ذهبيتين.

وجعل الإشراف على إدارة المدرسة الخاصة بالمالكية[١] والبوابين للقاضي حسين بن أبى بكر بن الحسين الذى نصب ناظرا للحرم الشريف بضم خمسين قطعة ذهبية لأجر وظيفته الأصلية، وتعد المدرسة المالكية أكبر المدارس الأربع وجعل لإدارة مدرسة المذهب الحنفي الشيخ القطب المكي المفتي[٢] الحنفي المذهب ومن مؤرخى مكة المعظمة، ووجهت إدارة المدرسة

(١) لقد سكن مولانا باقي شيخ شعراء الروم في هذه المدرسة حينما كان شيخا في مكة، وبما أن الشيوخ الذين كانوا يذهبون إلى مكة المكرمة أقاموا في هذه المدارس، مازال قضاة مكة يسكنون في هذه المدرسة ويقومون بوظائفهم، وهي مدرسة كبيرة في اتصال باب السلام بباب الزيادة.

(٢) ولم يكن للمذاهب الأربعة من يتولى الفتيا إلى عام ثمانمائة وسبعة ما عدا المذهب الشافعي، وفي خلال هذا العام عين من يتولى الإفتاء للمذهب المالكي والحنفي والحنبلي، كما ذكر سبب ذلك في مباحث المقامات الأربعة.

الشافعية إلى عبد العزيز الزمزمي من علماء المذهب الشافعي، واشترط أن يدرس في المدرسة الحنفية علم التفسير وعلم الطب وعلم أصول الفقه، وأن يدرس في المدرسة الشافعية الفقه الشافعي، وفي المدرسة الحنبلية[٢] كتب الحديث الستة وذلك في سنة (٩٧٢).

إن إحدي هذه المدارس التي بناها السلطان سليمان جعلت لإقامة قضاة مكة كما ذكر آنفا، ولكن المدارس الأخري قد استولي عليها متسلطو الزمن، ولم يبق أي حكم لشروط واقفها، وبينما كان أحمد باشا ابن أخت محمد علي باشا والي مصر محافظ مكة استطاع تخليص تلك المدارس من أيدي مغتصبيها، واشتراها بصورة نهائية، وبني هناك عمارة عظيمة وجعلها وقفا لمجاوري الحرم من المسلمين وجعلها سكنا خاصا لإقامة المجاورين ـ رحمه الله تعالى ـ جزاء ما قدم.

وللمدرسة السليمانية ست وأربعون حجرة ولكل حجرة جراية قدرها ثلاثة أرادب حنطة، وللمدرسة الداودية سبع وأربعون حجرة ولكل حجرة جراية قدرها ثلاثة أرادب حنطة أيضا، ولمدرسة الشهيد محمد باشا ست عشرة حجرة ولها نفس المقدار من الجراية، ويقيم في بعض حجراتها طلبة العلم وفي الأخري، من لا مأوي لهم من الغرباء والفقراء يتعيشون من الرواتب الموقوفة للحجرات، وفي مكة المعظمة ثلاث تكايا إحداها للخالدية والأخرى للشاذلية والثالثة للنقشبندية، التكية الخالدية فوق جبل أبي قبيس، والنقشبندية كذلك فوق جبل أبي قبيس، والتكية الشاذلية في ناحية جياد.

* * *

(٢) لم يكن في مكة تلك الفترة عالم حنبلي يصلح لتدريس المذهب الحنبلي؛ لذلك اتخذت الدار مدرسة للحديث، ووكلت ادارتها إلى صهر القاضي حسين بن أبي بكر بن الحسين معين بن آصف خان. ويشرف الآن على هذه المدارس علماء المذهب الحنفي.

تجديد حرم المسجد الحرام فى عصر السلطان سليم

بما أن أروقة الحرم الشريف وسقفه كانت كلها من الخشب ولم تعمر منذ زمن طويل أشرف كثير من مواضعها على الانهيار، وتخلخلت مجموعة من أخشاب أسقفها ومالت للانهيار فى ساحة الحرم الشريف، كما أن الأروقة التى فى الجدران الشرقية مالت نحو كعبة الله ومداخل أسقفها انفصلت عن الجدران وأوشكت على الانهيار.

وقد غرزت بعد المساند تحت السقوف المذكورة وفقا للمسوغ الشرعى، وأمكن الاحتفاظ بها على حالتها القديمة، إلا أن السقف آل للسقوط يوما بعد يوم حتى أصبحت الصلاة تحت هذا السقف غير ممكنة، وبما أن دوام هذه الحالة لن يخلو من الخطر فعرض الأمر من قبل إمارة مدينة مكة ونظارة الحرم الشريف والكعبة المعظمة على العتبة السلطانية، فصدر الأمر السلطانى من قبل السلطان سليم خان الثانى بن سليمان خان ببناء الحرم الشريف متينا رصينا، بعد هدم السقوف والأروقة المصنوعة من الخشب كلها وإقامة أعمدة الرخام مكانها وتذهيب أعلاها، وأبلغ الأمر السلطانى من قبل مقام الصدارة العظمى إلى أمير أمراء مصر سنان باشا طالبا منه أن يعين شخصا مناسبا لأمانة الأبنية المقدسة، وتدبير الأشياء اللازمة لذلك، وعهد بأمانة الأبنية المقدسة لأحمد بك من أمراء مصر ودبر كل ما يلزم لمهمات البناء، وأبلغ كل ذلك إلى مقام الصدارة وأرسل إلى الأمير المذكور بتوجيه من محافظة جدة الأمر العالى بإحالة أمانة البناء العظيمة إليه، وأخذ الأمير معه الأمر السلطانى وما تم تدبيره من لوازم البناء وتوجه إلى بندر السويس، وركب السفينة المجهزة ووصل إلى جدة المعمورة فى أواخر سنة (٩٧٩) ثم إلى مكة المكرمة حيث تلاقى مع من عين فى الفرمان للإشراف على

أمور البناء، وهو ناظر الحرم الشريف القاضى حسين بن أبى بكر الحسينى، وشرع فى الاستعداد لهدم البناء القديم، وبناء الجديد، وبناءاً على رأى المهندس محمد أفندى من ضباط الباب العالى والذى أرسل للإشراف على العمارة وذلك فى أواسط شهر ربيع الأول سنة (٩٨٠)[١] هدم الجدار الشرقى للمسجد الحرام من باب على إلى باب السلام كاملا، ومهدت أرضه، وفى جمادى الأولى من نفس السنة وفى يوم الجمعة وضع حجر الأساس بعد أن دعا أمام جميع الأهالى بالتوفيق.

وبما أن الأزقة التى كانت تحيط بالجوانب الأربعة للحرم الشريف فى ذلك التاريخ كانت على نسق واحد، وهو السقوف الخشبية المرفوعة على الأعمدة الرخامية، وبناء على الأمر السلطانى كان المقرر أن تبنى فوق السقوف قبب لا تبدل ولكن الأساطين القديمة لم تكن تتحمل ثقل تلك القبب؛ حتى وإن كانت صغيرة فلن تصل رصانة البناء ومتانته إلى الحد المطلوب، فرأى محمد أفندى المذكور أن يهدم الأعمدة ويبنى قوائم من حجر شمليس أصفر اللون بعد كل ثلاثة أعمدة، وقرر أن يثبت سقف الحرم الشريف ويحكم بناءه فأنشأ قببًا مزخرفة جميلة.

ووفق هذا القرار واصل عمله من باب على إلى باب السلام، ومن هنا إلى باب عمر الواقع فى آخر الجدار الشمالى وهكذا أتم عمله بالكمال بعد أن بنى الجهتين الشرقية والشمالية للمسجد الحرام وذلك فى سنة (٩٨٢) وفى أثناء ذلك آل بناء عمر السلطان سليم إلى نهايته، وخلفه على العرش السلطان مراد الثالث طاب ثراه، وتوقفت عمليات البناء مدة من الزمن ولكن أحمد بك تلقى أمر السلطان باستئناف المهمة وشرع فى العمل من جديد، وفى غضون عامين بلغ بالبناء حد الكمال، وزين باب الحرم الشريف وجدرانه وأحجاره باسم جناب السلطان، وحلى باب المعلى وما حوله من السقوف والأروقة بالنقوش الذهبية المتنوعة وكان ذلك فى سنة (٩٨٤).

(١) فى السنة المذكورة حدث سيل خطير ودخل إلى الحرم الشريف وارتفع الماء بقدر قدمين فاستبدّ الاضطراب والحزن بأهل مكة.

وكانت التعليمات التى تلقاها أحمد بك من مقام الخلافة عندما جددت مهمته تشمل زخرفة الأماكن المناسبة من المسجد الحرام بالخطوط النفيسة المذهبة، وبناء على ذلك أمر بكتابة اسم الجلالة واسم الرسول وأسماء الخلفاء الراشدين على طلاء الجدار الشرقى من الداخل، بسمك أربعة أصابع بحروف جلية ونفيسة بعد إتمام عمليات المسجد الحرام، كما أمر بكتابة الآيات المناسبة على الجدران بين العلامتين الخضراوين، وهكذا زخرف داخل المسجد الحرام وخارجه كما أمر بكتابة الآيات الخاصة بأبواب المسجد فوق عقود الأبواب، واسم الله واسم نبى الله وأسماء الخلفاء الراشدين أعلى الأعمدة التى تقع فى الصف الأول من الساحة الرملية. وكتب تلك الكتابات بخط جميل نفيس وزخرفت بالذهب، وقد نظمت الكتابة بطريقة بديعة بحيث كتب أعلى كل عمود خامس اسم النبى ﷺ.

ولم يسع الذين شاهدوا تلك الزخارف إلا أن يعترفوا بأن المسجد الحرام لم يزين فى أية مرة عند تعميره وتجديده كما زين هذه المرة، وفى هذه المرة قد عُمِّرَتْ رُمِّمَتْ المآذن التى فى باب عمر وباب الوداع بشكل جميل، يَسُرُّ الناظرين، وقد حفر أحمد بك خارج جدران المسجد الحرام الجنوبية بإنفاق مبالغ طائلة، وذلك قبل هدم جدران الحرم الشريف الجنوبية والغربية، وذلك لتوسيع مجرى السيل لأن مجرى السيل قد امتلأ مع مرور الزمن وارتفعت أرض المجرى إلى الدرج الثانى عشر للأبواب الجنوبية؛ لذا كان الدخول فى الحرم الشريف يتم عن ثلاثة أدراج.

وإن كان من المستحيل ألا يملأ السيل المجرى ويخربه إلا أنه كان يتم حفر المجرى وتعميقه كل عشر سنوات، ونقل ترابه إلى خارج المدينة وكان ذلك من

قاعدة العمل فى الأزمنة القديمة، ولكن ترك تطهير المجرى ما يقرب من ثلاثين سنة وامتلاء المجرى، واقتراب السيل من الدخول فى الحرم الشريف ملأ قلوب الناس بالقلق والاضطراب حتى إن السيل المخيف الذى ظهر فى ليلة الأربعاء فى اليوم الخامس أو العاشر من جمادى الأولى لسنة (٩٨٣) دخل داخل الحرم الشريف وحجبت المياه المتجمعة الحجر الأسود وباب الكعبة حتى قفلته، وظلت فى داخل الحرم يوما وليلة واحدة، ومنعت الناس من أداء الصلاة فى داخل الحرم يومًا وليلة واحدة، ومنعت الناس من أداء الصلاة فى سبعة أوقات. وعندما زالت هجمات السيل المخيف وأمكن السير فى داخل المسجد الحرام ظهر مجرى السيل والطريق القديم للسيل وأخرجت الأحجار والأوحال التى تراكمت هنا وهناك، وغسلت الأماكن الكثيرة الكائنة داخل الحرم وخارجه، وفرش داخل ساحة الحرمين بالرمال والحصى.

وقد ظهر السيل المذكور قبل تعميق المجرى فاستصوب رأى أحمد بك الذى سبق ذكره، وعمق حفرة المجرى بحيث لا تدخل مياه السيول فى داخل الحرم، وذلك بتدبير من شريف مكة وسادتها وأعيانها وأهاليها، واتخذوا تطهير المجرى وتنظيفه كل سنتين مرة قاعدة لا يحيدون عنها.

وما كان القيام بهذا العمل ميسرا لكائن من كان سواء من سلاطين العثمانيين أو خلفاء بغداد أو ملوك مصر، ولذلك عد إنجاز هذا العمل من أعظم آثار هذين السلطانين العثمانيين وثمرة هذا المسعى. وتم هذا العمل بعد أربعة أعوام، وينقل عن أحمد بك نقلا موثوقا أن ما أنفق من الخزينة الخاصة للسلطان (١١٠٠٠) قطعة ذهبية لإتمام هذا العمل ما عدا ما أرسل إلى أحمد بك من جانب الإدارة المصرية من الآلات والمسامير الحديدية وأشياء أخرى خشبية والعلامات الذهبية التى وضعت فوق القباب، وكلها خارج الحساب وبعد أن تم ترميم الحرم الشريف وتطهير المجرى، أرسل بيان بكل ما تم عمله إلى استانبول، وسرت منه جماعات المسلمين سرورا عظيما ونظمت أبيات شعرية تؤرخ تمام هذا العمل العظيم بلغات مختلفة وقدمت إلى أعتاب السلطان.

ولما كان تعليق هذه التواريخ المنظومة كلها فوق أبواب المسجد الحرام يخالف الأصول المرعية، اختير أجمل ما كتب فى هذا الشأن وأرسل إلى إمارة مكة المكرمة من قبل السلطان السنى المناقب ليعلق أو يحك فى مكان مناسب من المسجد الحرام.

وقد أعجب علماء مكة بالتاريخ المنظوم المرسل من مقام الخلافة الجليلة وحفر على لوحة رخامية، وبعد تزيينها وتذهيبها علقوها على الجدار الشرقى للمسجد الحرام فى مكان بين باب على وباب عباس امتثالاً للأمر السلطانى، وقد رأينا أنه من المناسب أن نكتب الثلاث أبيات الأخيرة من تاريخ سليس؛ لأنها أنشدت أمام السلطان وإن كانت مقدمته منثورا ولكنه يعتبر من الآثار الأدبية القيمة.

صورة تاريخ سليس

هذا التاريخ لا نظير له وعلق على الجدار الشرقى للمسجد الحرام نظم عندما تم تعمير المسجد الحرام فى عهد السلطان مراد خان الثالث.

الحمد لله الذى أسس بناء الدين المتين بنبى الرحمة والرشاد، وخصصه بمزيد الفضل والكرامة والإسعاد، وجعل حرم مكة مطافا لطواف الطائفين من أقاصى الممالك والبلاد، ﷺ وعلى أصحابه الأجلاء والأمجاد، ووفق عبده المعتدّ بأحكام الشريعة وتشييد أركانها على الوجه المراد، والمدخر ذخر المستزيد من زاد المعاد، ظله الممدود على مفارق العباد، السلطان ابن السلطان ابن السلطان مراد خان جعل الله الخلافة فيه وفى عقبه إلى يوم التناد، ولتجديد معالم المسجد الحرام الذى سواء العاكف فيه والباد، فى فاتحة سلطنته العظمى لازال للحرمين المحترمين خادما، ولأساس الجور والاعتساف هادمًا، وتجدد حرم بيت الله ـ عز وجل ـ بأمر العزيز المبجل، وعَمَّرَ عَامِرُ جُودِهِ، ما تضعضع من أركانه، بعدما انتقض على جدرانه، مجدد جدران حرم البيت العتيق وسوره بأكمل الزينة وأجمل صورة، بعدما أبلاها الجديدان وأكل عيدان سقفها الأرضة والديدان،

فرفع القباب موضع السطوح المبنية بالأخشاب، وابتهج بهذه الحسنة الكبرى كل شيخ وشاب، فأذعنوا له بالشرف الباهر، والمجد الفاخر تالين قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ (التوبة: ١٨) داعين له بالثواب الجزيل والذخر الزاخر، قائلين أدام الله فى سرير الخلافة محروسا بحفظك من كل آفة وظافر اعلا مشيد المجالس والمدارس، مجدد كل منهدم ودارس، واجعل بابه للراجين حرمًا آمنا وجنابه للمحتاجين كفيلا ضامنا، يأتون إليه من كل فج عميق بحرمة البيت العتيق، تقبل الله معطى السؤال بجاه الرسول، هذا الدعاء الحرى بالقبول، فلما أسس بنيانه على التقوى من الله والرضوان جاء مشيد الأركان، محاكيًا روضات الجنان، وصار هذا عنوان خلافته وبراعة استهلال النشور لسعادته وفى سنة أربع وثمانين وتسعمائة من الهجرة، وكان الابتداء بذلك التجديد، بأمر والد الماجد الدارج إلى مدارج المجد السلطان السعيد.

﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الشعراء: ٨٨: ٨٩).

السلطان سليم ابن السلطان بايزيد بن السلطان محمد بن السلطان مراد بن السلطان جلبى سلطان محمد بن السلطان يلديرم بايزيد بن السلطان أورخان بن السلطان عثمان، مكنهم الله تعالى سرور الجنان إلى انقراض الزمان، وكان الشروع فى الرابع عشر من ربيع الأول من شهور سنة ثمانين وتسعمائة.

فلما سلم السلطان سليم وديعته بأحسن التسليم، وارتحل من دار القصور إلى ما هيأ الله فى الجنة من القصور قبل تمام ما رام من تجديد المسجد الحرام، وأجلس على سرير الخلافة نجله النجيب أحسن إجلاس، وجعل حرمه (مثابة للناس)، يسر له إتمامه بلطفه إقبال وجوه الليالى والأيام وأنام الأنام فى مهد، عدله إلى قيام الساعة وساعة القيام ونظم راقم هذا الأرقام تاريخا يليق أن يكتب فى هذا المقام وهو هذا:

نظم

جـــدد السلطـــان مـــراد بـن سلـــيم

مسجـــد البيـــت العتيـــق المحتـــرم

ســـــر منـــه المسلمـــــون كلهـــــم

دام منصـــــور اللـــواء والعـــــلم

قـــال روح القـــدس فـــى تاريخـــــه

عمـر السلطـان مـراد (هـــذا الحـــرم)

سنة ٩٨٤

وهذه صورة التاريخ اللطيف الذى كتبه مولانا سيد حسين بن أبى بكر الحسينى مفتى مكة المكرمة الشافعى، وكتبه منثورا وقد أعجب به أهل مكة المعظمة لبلاغته السلسة، وعلق على جدران المسجد الحرام الشرقية أيضًا.

عربى

باسمه سبحانه: ﴿ **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ** ﴾ (التوبة: ١٨) فى عمارة هذا المسجد الشريف وتجديده من اختار الله سبحانه من خلقه وعبيده المقدس المرحوم المغفور له الشهيد سلطان الإسلام والمسلمين، خاقان خواقين العالمين، العازم بفضل الله ظلال دار النعيم حضرة الملك الأعظم السلطان سليم نور الله تعالى ضريحه، وروح بروائح الجنات روحه، وأتم بناءه وأكمله ولقنه ونقشه وجمله، وارث الأفخم الإمام الأعظم وشقيقه الأكبر المعظم، والملك القاهر العرمرم، من ملكه الله تعالى شرق البلاد وغربها، وجعل طلوع يديه عجم الرعايا وعربها، وأطلعه سراجا منيرا فى المشارق والمغارب، وملكا مرفوع المقام على هرم الكواكب، ومشيد الإسلام حصنا حصينا محيطا، وجعل ظله يخيم على كافة الأنام بسيطا، وعدله الفريد فى جميع الوجود مبسوطًا، وقمع سلطنته

obeikandl.com

الشريفة طوائف الكفر والغلاء، وجمع له بين اليائس والنداء، وصار ملكه الشريف بعون الله سبحانه مفردا خليفة الله على كافة العباد، ورحمته الشاملة بجميع البلاد، سلطان سلاطين الزمان، خلاصة خواقين آل عثمان السلطان ابن السلطان السلطان الخنكار الأعظم مراد خان لازال الوجود بدووام خلافته عامرا، وبدا برج الإيمان فى أيام سلطنته قويا ظاهرا، زاده الله قوة ونصرا، وشد بملائكته الكرام له إزرا، فتاريخ إتمامه قد جاء (أطال الله من أتمه عمرا) فى سنة ٩٨٤.

الذيل

وبعد مرور ستة وثلاثين عاما على عمارة السلطان مراد للمسجد الحرام أمر السلطان أحمد خان الأول بتعمير جهات المسجد الحرام لاقتضاء الحاجة إلى ترميمها وذلك فى سنة ١٠٢٠[1].

وبعد قيام السلطان أحمد الأول بهذا التعمير بمدة وجيزة، لزم تعمير بعض المواضع فى أبنية الكعبة المعظمة والحرم الشريف، وعرض الأمر على السلطان مصطفى الثانى، فأصدر أمره بترميم ما يلزم ترميمه، وكانت خمسة مداخل فى السقف الشريف قد بليت فبدلت كلها، وجدد السلم الذى يفضى إلى سطح الكعبة بأن جعل سبع درجات من درجاته من الرخام، كما محا آثار البلى عن جوانب الحجر الأسود الأربعة، فهدمت وجددت وقد قدمت والدة السلطان كل ما أنفق لهذه العمليات.

وفى عصر السلطان عبد الحميد الأول بليت بعض أعمدة المسجد الحرام وبعض قبابه، فأمر السلطان بتغيير هذه الأعمدة وتعمير القباب، كما رممت مئذنة باب العمرة والمآذن الأخرى بعض الشىء، إلا أن معالم المسجد الحرام احتاجت إلى الإصلاح والتعمير والتسوية بعد فترة.

(١) أراد المرحوم السلطان أحمد أن يسدى خدمة لم يقم بها أحد، وذلك بتجديد كعبة الله جاعلا إحدى أحجارها فضة والأخرى من ذهب، ولكن سعد الدين أفندى زاده ومحمد أفندى شيخ الإسلام فى ذلك الوقت رد على السلطان قائلا ولو أراد الله لجعل كل أحجار الكعبة من الياقوت فانثنى السلطان عن فكرته.

وفى السنة الميمونة التى وفق فيها السلطان مراد على تعمير بيت الله، وتم إصلاح وتعمير الأماكن التى احتاجت إلى التعمير والإصلاح وذلك فى سنة (١٠٤٥).

وبعد ما أجرى مراد الرابع من إصلاح ـ أى من عام (١٠٤٥) إلى عام (١٠٨٠) ـ عمرت الأماكن التى قد اقتضى الأمر تصليحها شرعا، ولم يترك فيها موضع للإصلاحات الكبيرة، وقد اهتم بكل شىء سواء أكانت مبانى المسجد الحرام، أو كانت المواقع الأخرى من مدينة مكة المعظمة وما فيها من المآثر اللطيفة.

أمر السلطان محمود والى مصر محمد على باشا بإجراء كل ما يلزم إصلاحه فى الأماكن المقدسة التى دعت إلى تعميرها الضرورة الشرعية توا بلا استئذان، وفى أواسط عام (١٢٣٥هـ) عرف محمد على باشا أن الخلل طرأ على سقف الكعبة إذ تخلّخلت بعض الألواح الرخامية، وأخذت المياه المجتمعة فوق سطح الكعبة طريقها إلى داخل بيت الله، وتبين وجوب ترميم وإصلاح كثير من المواضع خارج الحرم الشريف، وفرش سقف كعبة الله بالرخام المجلى الذى أرسل من إستانبول بناء على الطلب الذى قدم هناك، ودفنت الحجارة القديمة التى كانت تغطى سطح البيت فى حفرة حفرت بالقرب من بئر زمزم، وذلك بناء على رأى الشيخ عمر عبد الرسول وهو من الصلحاء المشهورين.

وبعد تعمير المسجد الحرام عمرت قبة مسجد الخيف الكائن فى منى ومئذنة مسجد المشعر الحرام[١] ومسجد نمرة[٢] الذى يطلق عليه اسم مسجد إبراهيم، ومسجد غار المرسلات[٣] ومسجد الإجابة[٤] ومسجد الجن[٥] ومسجد التنعيم[٦]

(١) هذا المسجد اللطيف فى المزدلفة.
(٢) مسجد نمرة فى ساحة عرفات.
(٣) فى منى والناحية الجبلية من مسجد الخيف.
(٤) فى المعلى
(٥) فى جهة المعلى.
(٦) فى العمرة.

ومسجد الحديبية[١] ومسجد مولد النبى[٢] ومقبرة خديجة الكبرى[٣] ومقبرة آمنة[٤] ودار السيدة خديجة الكبرى مع أضرحتها وقبابها[٥] ودار خيزران[٦] وضريح ميمونة[٧] كل هذه المآثر قد جددت بإحكام، وفرشت من الداخل بطنافس غالية وزينت من الخارج بنقوش ملونة، وفى النهاية بدلت عدة أعمدة من أعمدة المسجد الحرام التى أوشكت على الخراب وذلك فى سنة (١٢٣٥).

وكان السلطان عبد المجيد خان ابن السلطان محمود خان العادل قد بدل الأحجار التى تخلخلت داخل كعبة الله وحول الحجر الأسود الأسعد. كما جدد بعض القباب والأعمدة التى تحمل هذه القباب وأنشأ الأرصفة[٨] التى تؤدى إلى باب على والمدرسة السليمانية والتى تمتد عبر الساحة القبلية للحرم الشريف، وبعد ذلك بسنة أرسل أربعة شمعدانات عالية على شكل النخلة لتوضع على الجهات الأربعة من الساحة القبلية للمسجد الحرام، وهكذا أنار الحرم الشريف وقبل إرسال هذه الشمعدانات كان الناس يؤدون صلواتهم فى الظلام ليلا، وبعدما أنار السلطان عبد المجيد أطراف الكعبة المعظمة كما ذكر، شيد بإحكام بعض أعمدة القباب التى آلت إلى الخراب وجدد الجدران التى حول مقبرة المعلى دائرا ما دار، كما أصلح الجدار الخارجى للحطيم.

وبما أن جدار الحطيم كان جديدا رأى الأهالى أنه لا مساغ شرعا لتجديده، إلا أن والى جدة عثمان باشا (وكان أمين البناء) فى ذات الوقت لم يهتم بما يقوله الأهالى، فجدد ذلك الجدار كما يحلو له، وبعد ما أتم عثمان باشا إصلاح جدار

(١) فى وسط الطريق بين مكة وجدة.
(٢) فى داخل مكة.
(٣) فى مقبرة جنة المعلى.
(٤) هذا أيضًا فى المقبرة المذكورة.
(٥) فى نفس مكة.
(٦) هذا أيضا فى داخل مدينة مكة.
(٧) بين وادى فاطمة ومسجد عمر.
(٨) وكان موضع الأرصفة أرضا رملية.

الحطيم أتجه إلى مخزنين للمهمات[1] فى ساحة المسجد الحرام وعمرهما، وجعل أحدهما دارا للميقاتى والآخر مكتبة[2] وجلب لها كتبا كثيرة من إستانبول، وهكذا زين تلك المبانى وفى النهاية جدد مبانى مسجد الخيف، ثم جدد المسجد الكائن فى الطائف، وضريح عبد الله بن عباس (رضى الله عنهما) كما جدد بإحكام مقبرتى (طاهر) بن الرسول ﷺ ومحمد حنفى[3] بن على (رضى الله عنهم) وذلك فى عام (١٢٦٢).

بعد العصر المذكور بمدة صدر الأمر السلطانى بتجديد الدار التى شهدت مولد النبى ﷺ، ومسقط رأس الصديق، وسقط رأس على بن أبى طالب رضى الله عنهما، وكذلك الأضرحة ومقابر الشهداء التى فى طريق العمرة، وضريح السيدة ميمونة ﷺ ومسجد مذبح إسماعيل (عليه السلام)[4]، وعمر سبيل باب الصفا الذى كان قد اتخذ دار خلاء، فجعل دار أبى جهل وأبى اللهب فى باب النبى دارين للخلاء، وجدد غطاء مقبرة أم المؤمنين ميمونة (رضى الله عنها)، وبنى سبيلين أمام ضريحها، وألحق بعض الحجر بالدار التى ولد فيها أبو بكر رضى الله عنه، واختصها بالخدم، وجدد منازل الخدم التى تتصل بمسقط رأس حمزة (رضى الله عنه) وذلك فى سنة (١٢٦٢).

رؤيا عثمان باشا

بينما كان عثمان باشا ينهى عمليات ترميم دار مسقط رأس حمزة، رأى فى منامه أن حمزة ـ رضى الله عنه ـ قد شرف داره بالزيارة، وفسر الذين سئلوا عن تفسير الرؤيا ما رآه عثمان باشا فى منامه بأن حمزة ـ رضى الله عنه ـ قد سر وابتهج من تعمير مسقط رأسه، وعلى هذا قد ذبح الباشا المذكور كثيرا من القرابين على أنها من قبل السلطان، ووزع لحومها على الفقراء والمساكين، وبما

(١) كان اسم المخزنين قبة الفراشين.

(٢) وفى عام (١٢٩٨) كل من دار الميقاتى والمكتبة.

(٣) محمد بن على بن أبى طالب، أبو القاسم بن الحنفية ـ نسبة لأمه من بنى حنيفة ـ المدنى، ثقة عالم، مات بعد سنة ٨٠هـ. انظر: تقريب التهذيب ٢/ ١٩٢.

(٤) فى منى.

أن مذبح إسماعيل كان خاليا من الجدار فأحيا ذلك المكان ببناء الجدار، كما أنه هدم البيت الخاص ببنى شيبة، وأنشأه من جديد، وبهذا استجلب دعوات الأهالى والزوار بالخير للسلطان سنى المناقب وذلك فى سنة (١٢٦٢) وظلت مبانى المسجد الحرام بفضل هذه العمارة أربعة وثلاثين عاما بعيدة عن الخلل؛ إلا أن رخام المطاف وأماكن أخرى احتاجت إلى التعمير، وبناء على هذا جدد الرخام المذكور وكذلك الأحجار التى فرشت بها تحت القباب، وكذلك الأحجار التى فرشت بها أرضية بيت الله أو أصلحت إلا أن مبانى المسجد الحرام ظلت بعيدة عن المساس وذلك فى سنة (١٢٩٣) وفى تعمير أحجار داخل الكعبة وتجديدها نظم مفتى مكة الشافعى أحمد دحلان أفندى هذا التاريخ:

لسلطاننـــا عبـــد المجيـــد محاســن

ومـن ذا الـــذى بالحَضْـرِ يقـوى عـدد

وقـــد حـــاز تعمـــير الباطـــن كعبـــة

وتاريخـــه بيـــت مزيـــد يجـــــدد

بناء بـــدا زهـــوا لداخـــل كعبـــة

وسلطاننـــا عبـــد الحميـــد المجـــدد

ورأى مهندس البلدية الذى عهد إليه بالتعمير أن بعض الأماكن المقدسة أشرفت على الخراب، وعرض ذلك على المسئولين مع الخريطة التى رسمها للأماكن التى يلزم تعميرها.

ولكن الزمن لم يكن مساعدا لكل هذا العمل والتزم ألا يفتح الباب لنفقات باهظة لتعمير سطحى وتسوية قليلة. وفى الخريطة التى وضحت الأماكن التى تحتاج إلى التصليح فى المسجد الحرام رئى تجديد وترميم عدة أعمدة قائمة أمام محفل الشافعية والمدرسة الداودية وباب إبراهيم (الزيادة)، ليعنى إصلاح أربعة أعداد من الأعمدة الرخامية التى تحمل القبب الحجرية التى فى الساحة الرملية

من باب العمرة، وكذلك ثلاث قبب ملاصقة للمدرسة اليمانية التى تلاصق باب إبراهيم (الزيادة)، يعنى أن الأعمدة الثلاثة التى تعد كأرجل تحمل عقود القبب التى قد برزت عن مستواها وأوشكت على الانهيار بغتة، وكما بدا أن ترميم تلك الدعائم سوف يكلف (٧٥٠٠٠) قرش ولذلك صرف النظر عن إصلاح المظلة الشافعية، ورئى أن يدعم الأعمدة الثلاثة التى أمام المدرسة الداودية والثلاثة أعمدة الواقعة بجانب قصر نقيب السادات بدعامات وقتية ومساند؛ لأن إبقاءها على حالها كان خطرا، وفعلا اتخذ الإجراءات اللازمة لذلك وبهذا أعيد للناس ما سلب منهم من الشعور بالأمن وذلك فى سنة (١٢٩٦).

وقد أدرك بعد تنفيذ القرار السابق بعامين أن الأعمدة الستة ستنهار بغتة، وأن إبقاءها على تلك الحالة فى المسجد الحرام غير لائق، وسيثير قلق المسلمين ولاسيما أولئك الذين يعيشون تحت إدارة الدول الأجنبية من إخوان الدين.

لذا رأى عثمان نورى باشا والى الحجاز وقائد جيش الدولة العثمانية فى الحجاز أن يكشف وأن يعاين بدقيق الفحص تلك الأعمدة من قبل ضباط أركان الحرب من جديد، ثم بعث بنتيجة الفحص مع الخريطة السابقة التى رسمت من قبله إلى الباب السلطانى، واستأذنه فى تعمير تلك الأعمدة، ولما وصل الإذن السلطانى أمرًا بهدم تلك الأماكن عين القائم مقام صادق بك كبير مهندسى عين زبيدة للقيام بالبناء.

وفى غرة رجب عام (١٢٩٩) شرع صادق بك فى إيفاء ما كلف به فهدم القباب المذكورة وبسهولة جر الأعمدة الرخامية التى ترفع العقود بواسطة آلات الجر وربطها فى أماكنها بأوتار حديدية ربطا محكما، ثم أقام عليها القباب طبق أصول الفن المعمارى، وبذلك رفع الخطر الذى كان يهدد الناس فى داخل الحرم الشريف وذلك فى سنة (١٣١١).

بينما كان صادق بك مشغولا بإقامة القباب المذكورة رأى أن الأعمدة التى تحمل القبتين اللتين أمام باب على ومتصلتين بالساحة الرملية تزحزحت

أعمدتهما، فأخبر بذلك عثمان باشا وتلقى منه الأمر بالإصلاح فهدمها وأقامها وفق الفن المعمارى والقاعدة الهندسية بصورة متينة رصينة وذلك فى سنة (١٣١٩).

وقبل الدخول إلى الحرم الشريف من باب إبراهيم كان هناك ثلاث درجات وفى وسط القبتين حجر فى طرفيه درجات الارتقاء والنزول، وقد جعلت بطريقة سيئة مما كان يسبب لجماعات المسلمين فى طلوعهم ودخولهم مشقة كبيرة، وعند إدخال الجنازات فى الحرم كان بعض المسنين الضعفاء يسقطون على الأرض تحت الأقدام و يضجون بالصراخ.

ولما أبلغ الأمر من الأهالى والمجاورين إلى عثمان باشا أمر بهدم ذلك المكان وتجديده وتوسيعه، فجدد كما ينبغى فسهل الصعود والنزول وذلك فى عام (١٢٩٩).

وكان فى الطرف الشرقى للكعبة وبالقرب من بئر زمزم فى جهة باب على قبتان يرجع عهدهما إلى زمن قدماء الملوك، وكانت مساحة كل قبة ستة أمتار مربعة فأمر السلطان عبد المجيد والد السلطان فى عام ١٢٦٢ بتحويل أحد القبتين إلى بيت للميقاتى والأخرى إلى مكتبة، ولكن وجود هاتين القبتين كان يضر بالحرم الشريف، ويحول دون رؤية المصلين الذين يصلون أمام باب على وباب عباس للكعبة الشريفة.

كما أن مياه السيول المتراكمة فى وادى إبراهيم عندما تهطل الأمطار كانت تدخل إلى داخل الحرم الشريف وتتلف كتب المكتبة القيمة، وبناء على ذلك وقبل سبعة عشر عاما أى فى عام (١٢٨٤) أفتى شيوخ المذاهب الأربعة بهدم هذه الأبنية ونقل ساعات الميقاتى وكتب المكتبة إلى أماكن مأمونة، وتخصيص ذلك المكان لأداء الصلاة فيه و رغم أن الفتوى كانت بإجماع الآراء وقد حازت موافقة السلطان؛ إلا أنها لم تنفذ إلى الآن لسبب مجهول، ولكن عثمان باشا أمر بنقل مكتبة المدرسة السليمانية ودار التوقيت إلى مكان مناسب فى ناحية باب النبى، وتسوية أرضيهما وفرشها بالرمال وذلك فى سنة (١٣١٩).

إن المكان الذى نقلت إليه المكتبة قبة كبيرة تقع فى الجهة اليمنى عند الدخول إلى المدرسة السليمانية، وكانت هذه القبة تعرف بدار الحديث، ولكنها تعرف الآن بدار أحمد باشا.

وبناءا على ذلك عمر ما يجب تعميره من دار الحديث، وجلب لها القدر الكافى من الدواليب والرفوف الزجاجية، ووسع بابها ووضعت اللوحة الرخامية التى عليها التاريخ والتى كانت موضوعة فوق باب المكتبة القديمة فوق باب المكتبة الجديدة، هكذا أصبحت المكتبة الجديدة مكتبة جميلة مزينة بالنسبة للمكتبة القديمة[1].

تاريخ المكتبة

إن الدعاء واجب ليل نهار على أهل الإسلام كافة
وهم يشهدون آثار خير السلطان عبد المجيد خان
إن ذلك الوزير المجتبى يسعى على الدوام مسعاه
فيجلب دعاء الخير لأسرة آل عثمان
إنه شريف باشا الأكرم الملقب بشيخ الحرم
ففى كل أيام ينال الخير والإحسان
يالحسن دار الكتب تلك التى أحسن
فيها توسيع المكان
أذاع شوقى لها التاريخ جوهرا
مخبرا بفتح المكتبة أهل العرفان

فى عام ١٢٦٢.

(١) قد اتخذت القبة الثانية التى تقع بجانب المكتبة خزينة الحجاز، وعندما أنشئت دار خزانة على مايرام فنقلت الخزينة إلى مكانها الجديد. وتقرر أن يتخذ هذا المكان دارًا للعلوم من قبل الحكومة. وإن كانت المدرسة السليمانية لها قبتان أيضا إلا أنهما اتخذتا محكمة شرعية منذ فترة طويلة.

obeikandl.com

فى تلك المكتبة (٣٥٥٣) كتابا أرسلت من قبل السلطان عبد المجيد، ويتولى أمانة هذه الدار الشيخ محمود أفندى من مدرسى الحرم الشريف يعاونه رفيقان من الموظفين.

وإن كان للصدر الأعظم الأسبق محمد رشدى باشا الشروانى (١٣٦٢) مجلدا من الكتب تحت حفظ أمين المكتبة محمد رشدى الداغستانى وسيد على، إلا أن هذه الكتب مودعة فى مدرسة خاصة فى مواجهة الحرم الشريف.

وتقع دار التوقيت فى اتصال السلم الذى فى داخل الحرم الشريف، ويدخل فيها من هذا السلم وقد بنيت مبانى دار التوقيت، فهى تحت الرواق وفوق دكة النساء وعلى بعد مترين من جدار الحرم الشريف، وقد أسس على شكل شبه منحرف وعلى هيئة غاية فى الجمال.

ولدار التوقيت ثلاث نوافذ ويبلغ عرض كل واحدة منها مترا وطولها مترين، وقد فتحت إحداها بثقب جدار الحرم الشريف، وترى منها مدرسة الخاصكية، وفتحت نافذتان منها، ينظر منها إلى كعبة الله من داخل الحرم الشريف، فالذين يمرون بالمسعى يضبطون ساعاتهم ناظرين من النافذة التى تواجه مدرسة الخاصكية، والذين فى داخل الحرم الشريف يضبطونها ناظرين من النافذتين اللتين فى ناحية كعبة الله.

إن حجر التاريخ القديم الخاص بدار التوقيت قد وضع فوق النافذة التى تطل على شارع المسعى، وقد جددت زخرفته وألوانه كما جددت زخرفة وألوان حجر التاريخ الذى وضع فوق باب المكتبة.

بما أن ألوان طلاء الرواق المطل على الساحة الرملية قد محيت وتعذرت قراءة خطوطه، وبذلك قبح منظره داخل الحرم، وذلك عند تعمير وإصلاح أعمدة القباب التى فى ناحية باب العمرة وباب إبراهيم زيادة وباب على، ولتغيير هذا المنظر جدد طلاء الرواق وأسماء الجلالة التى بين الرواقين مع الخطوط الكائنة فى

ناحية باب السلام وباب إبراهيم، وطليت أرضيتها بلون أخضر داكن وأسماء الجلالة مع الخطوط طليت بلون أصفر شبيه باللون الذهبى، ورمم وأصلح طلاء الجدران وذلك فى سنة (١٢٩٩).

وبعد ما وفق عثمان باشا فى ترميم هذه الأماكن جعل المقام الحنبلى الذى كان يواجه الحجر الأسود بين الحجر الأسود والركن اليمانى، أو مقابل المقام الحنفى، ورمم وأصلح الأماكن الأخرى من حرم المسجد الحرام على أحسن وجه، وطلا جميع جهات الحرم الشريف وذلك فى سنة (١٣٠٠).

إن الحرم الشريف الآن فى شكل مستطيل، وإن الكعبة المعظمة تقع فى وسط المسجد الحرام، وبئر زمزم فى الجهة الشرقية الجنوبية لباب كعبة الله، ومقام إبراهيم فى الجهة الشمالية من باب الكعبة، وحجر إسماعيل فى الجهة الشمالية للبقعة المفخمة، والمقام الحنفى مقابل ذلك، والمقام الشافعى خلف مقام إبراهيم، والمقام المالكى فى الجهة الغربية من البيت الشريف، والمقام الحنبلى فى الجهة الجنوبية من البيت المنير الشريف فى اتصال مقام إبراهيم من الجهة الغربية، وكان فى ناحية باب أجياد وفى اتصال العمارة المصرية المدرسة المجيدية غير تام الإنشاء، وقد حول عثمان باشا هذه المدرسة إلى دائرة حكومية لسكنى المواطنين، وحول القلعة الهندية إلى معسكر يسمى غيرتيه، وجدد المعسكر السلطانى للمدفعية وقسم الشرطة الكائن أمام باب على، وخصصهما كلهما لإقامة جنود السلطان الموعود بالنصر. إن معسكر غيريته فوق الهضبة التى تتصل بجبل الترك الواقع فى الجهة الغربية من مكة المكرمة، وقلعة جياد فوق هضبة واقعة فى الجهة الجنوبية من مكة المكرمة والعسكر السلطانى للمدفعية كأنه فى وادى المعسكر الواقع فى جياد مستشفى قلعة الفلفل فى الجهة الشرقية من جبل الترك، وقسم الشرطة الرئيسى فى الصفا، والمعسكر الحميدى السلطانى والدوائر الحكومية الضخمة الكائنة فى مكان قريب من باب أم هانئ.

* * *